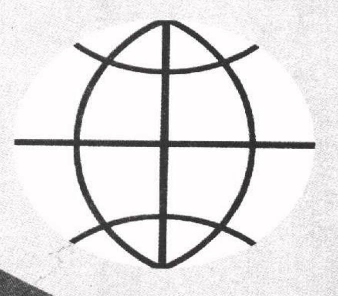
من روائع القصص العالمى

الإبن والأم

وقصص أخرى



ترجمة : د. حمادة إبراهيم

غلاف ورسوم داخلية : رشيدة رشاد

الفنانة: **رشيدة محمد رشاد**



الهيئة المصرية العامة للكتاب

تقديم

مؤلف قصة «العصابة» هو «ألبرتو مورافيا» كاتب إيطاليا المعاصر ومن أشهر كتاب القصة القصيرة، الذى كتب منها المئات، بالإضافة إلى عشرات الروايات والسيناريوهات للأفلام السينمائية، من خلال علاقات متشابكة ومعقدة ومثيرة بين الرجل والمرأة.

أما بقية القصص فى هذه المجموعة، فهى مختارة من بين القصص الخمسين الفائزة فى مسابقة بعنوان «أفضل خمسين قصة فى العالم»، نظمتها كبرى الصحف والمجلات العالمية، فى ثمانى عشرة دولة، تحت رعاية «النيويورك هيرالد تريبيون» التى خصصت جوائز للفائزين. وقد وصلت آلاف القصص من مختلف بلدان العالم، بعضها لكبار

الكتاب وبعضها الآخر لكتاب جدد، وتشكلت لجنة من بعض كبار الكتاب فى العالم من فرنسا - على سبيل المثال - نذكر: «بيير بينوا» و«مارسيل بانيول» و«جوزيف كيسيل» بالإضافة إلى المدير العام السابق للمجمع الفرنسى ورئيس هيئة الكتاب وقد قامت إحدى اللجان العليا باختيار قصتين أو ثلاث قصص من كل دولة هى التى دخلت المسابقة. وقد خصصت جائزتان كل منهما ألف دولار للفائزين الأوليين، وأربع جوائز ثانية، كل منها خمسمائة دولار، ثم خمس جوائز أخرى قيمة كل منها مائتان وخمسون دولارًا. ومن الطريف أن أمريكا منظمة المسابقة لم تشارك فى المسابقة بأى من كتابها.

ويجمع بين هذه القصص المختارة فى هذه المجموعة أن معظم الأبطال فيها أطفال أو مراهقون لم يتجاوزوا سن الطفولة إلا بقليل، كما أن كل قصة تحكى موضوع هرب من نوع معين، هرب من قسوة الكبار، وهكذا الأطفال فى عيون القصاص، يتعرضون للقسوة والقهر.

وبؤس الأطفال وضع عام أو عالمى، فكتاب هذه القصص من بلدان مختلفة.

فى قـصــة «الهـرب» وهى من اليـابان، تحـاول الأسرة أن تفر من ويلات الحرب، فتقتل الأم قبل أن يتمكن الأب من حمل بناته ليبدأ معهن رحلة العذاب الطويلة تحت وابل الأمطار (الطبـيـعــة) ووابل المقذوفات (الإنسان).

وفى قصة «الجسر المعلق» هرب آخر وفى ظروف مـشـابهـة، ولكن هذه المرة فى فـيـتنام. ليس أمـام الفـارين من النيـران، لكى ينجـوا بأنفـسـهـم وصغارهم، سوى جسر معلق على النهر، فتوافدوا عليه من كل مكان وتكدسوا أمامه، كل ينتظر دوره، بينما قصف المدافع يأتى من كل صوب، وجاء دور أم عجوز حملت فوق كتفها عصا من الخشب علقت فى طرفيها سلتين أخفت فى الأولى طفلاً فى الثالثة من عمره وفى الأخرى وليدا صغيرًا، وتريد أن تعبر بهمـا النهر فوق الجسر الضعيف الذى يهدد بالانهيار، وترفض العجوز أن تأخذ بنصيحة الرجال الذين يطلبون منها التخلص من كل ثقل حتى لا يسقط بها الجسر فى الماء.

ونحن فى قـصـة «الأسـتـاذ والتلمـيـذة» وهى من الهند، أمـام هـرب من نوع آخـر، فـالأسـتـاذ الفنان

الزاهد يفاجأ بأنه يحب تلميذته ويحاول أن يفر من هذا الحب «المحرم».

أما الهرب فى قصة «الساحرة» اليابانية، فهو من جانب الشاب الذى يحاول أن ينقذ نفسه ومستقبله من الدمار المحقق الذى ينتظره من حب فتاة غانية.

وأما فى «الابن والأم» فالطفل بطل القصة الذى يحب أمه مع أنها سيئة السمعة، يمارس ثلاثة أنواع من الهرب، فمن أجل خدمة أمه، يحاول الهرب من شخصيته فيتنكر فى زى فتاة، ومرة أخرى يهرب لكى يكسب قوته بعرق جبينه ولا يكون عالة على أمه، وأخيراً يقرر الطفل أن يهرب من الحياة كلها حين يكتشف حقيقة أمه.

وفى القصة الإيطالية بعنوان «العصابة» لا يفلح الهرب الذى تمارسه عصابة اللصوص بالرغم من التخطيط المذهل والتنفيذ الدقيق.

د. حماده إبراهيم

العصابة

من إيطاليا

تأليف :ألبرتو مورافيا

حينما دخلتُ إلى حجرة الكشف، استوقفنى الطبيب وأنا متجهة إلى المقعد قائلاً: «لا جلسة اليوم»، وتبادلنا النظرات، إنه أصلع ويلبس نظارة طبية بعدستين سميكتين تزيدان من اتساع حدقتى عينيه ذاتى اللون الأزرق الباهت، فتجعلهما أشبه بشقين صغيرين فى جبل من الثلج، وتحت أنفه الطويل المقوس، يبدو فمه كثقب مستدير تحيط به تجاعيد كثيرة حادة ودقيقة كخدوش الموسى، وهو طويل القامة، عريض المنكبين، وإذا جلس وضع إحدى ساقيه الضخمتين على الأخرى، فظهر بياض عضلتى الساقين، أعلى جوربه القصير المضموم بشريط من المطاط. وهو شخص كريه، غليظ الطبع، ومع ذلك... فلندعه يكمل حديثه، خيم الصمت

لحظة، واستطرد يقول بصوته البارد البغيض: «سيدتى العزيزة، يجب أن أقول إنه بعد عام من العلاج أصبحت على ما يرام ولم تعودى فى حاجة إلى علاج».

فاعترضت فى الحال قائلة: «إننى لست على ما يرام بالمرة، إننى أعانى من حالة عصبية حادة».

- إنك على ما يرام تمامًا، والشىء الوحيد، والغريب الذى لاحظته عليك هو أنك تحاولين إغرائى وبأى ثمن، إنك جميلة، وشابة، وغنية ومنفصلة عن زوجك، وكلها ظروف مواتية، ولكننى لا أحبك للأسف، إننى أحب زوجتى التى تكبرك فى السن وتقل عنك فى الجمال، إننى لم أعد أستجيب لإغراء المغامرات، فمثل هذه الأمور وخيمة العواقب فى مهنتنا، إذا عُرفت. لكل هذه الأسباب أرى من الأفضل أن ينقطع كل منا عن الآخر.

كان يتحدث بلهجة حازمة، ونهض، واتجه بخطوات قصيرة وسريعة صوب الباب ولم يتوقف إلا ليقول لى: «تفضلى يا سيدتى، أرجوك، تفضلى تفضلى».

عدت إلى بيتى مشدوهة ومنهكة، لا أقوى على التفكير، وقد غشيتنى حالة من الذهول أعجز عن

تصويرها، ودخلت إلى البهو، واقتربت من المصعد، وكان هناك شاب ينتظر، كان طويل الشعر ككثيرين غيره من الفتيان، أنفه المقوس كأنوف القراصنة يبرز بين خصلتين من شعره البنى المنفوش، فم مترهل منفر، وذقن اختفى وراء لحيته المدببة. كان يرتدى سترة ضخمة وبرها من الداخل، على غرار رعاة جزيرة «سردينيا»، وبنطلون «جينس» و «بوت».

دخلت أنا والشاب إلى المصعد، وخرجنا منه معا أمام باب شقتى، وفى هذه اللحظة أخبرنى أنه جاء ليعرض علىّ شراء بعض قطع الصابون التى يحملها فى حقيبة كبيرة ذات سير طويل، أدخلت الشاب الشقة وتركته لأحضر له النقود من حجرتى، فلم يكن فى حقيبتى شىء منها، وعدتُ فلم أجده، كان قد انصرف بعد أن استولى على زهريتين كبيرتين من الفضة كانتا فوق المنضدة. ترددت لحظات، ثم اندفعت إلى الخارج، وأنا أركض على السلم، وأردد: «يا له من وقح». فلحقت به، كان ينزل فى هدوء وهو يصفر وقد استند بيده على الدرابزين، وعلق حقيبته على كتفه، وطلبت إليه وأنا ألهث أن يعود، فأومأ برأسه بالإيجاب دون أن تبدو



عليه الدهشة، وعلى عتبة الشقة سألته عن اسمه فأجابنى: اسمى «دومينيكو».

ولعلكم تتذكرون تلك العصابة التى تحدثت عنها الجرائد كثيرًا فى وقت من الأوقات، وقامت بسرقة إحدى عشرة شقة، الواحدة تلو الأخرى، فى بضعة أشهر. هذه العصابة تكونت منا نحن الاثنين، أنا و «دومينيكو».

كان لى أصدقاء كثيرون من رجال المسرح، وممثلى السينما، والأجانب، وكانوا جميعًا يقطنون فى شقق تتسم بطابع واحد، فجميعها تقع فى الطابق الأخير من البنايات وليس بها غرف للخدم، كنت، فى اليوم المحدد للسرقة، أتصل هاتفيًا بالضحية، وأتقصى خفية عن كيفية قضائها للسهرة وخاصة الساعة التى ستعود فيها.

كان كل شىء يتم بناء على خطة موحدة ومدروسة، كنا نختبئ، أنا و «دومينيكو»، على سطح أحد المنازل المجاورة للمنزل الذى سنسطو عليه، ونبقى بين الملابس المنشورة حتى تسنح الفرصة، فنقفز من سطح إلى سطح حتى نصل إلى المنزل الذى نريده، كان الأمر سهلاً للغاية، فأبواب الأسطح فى مدينة روما تُترك مفتوحة دائمًا أو تغلق

بأقفال عتيقة يكفى مسمار مقوس لفتحها، وكان «دومينيكو» يقوم بثنى قضبان النوافذ، إذا وجدت، ثم يكسر الزجاج برفق، ويمد يده ويفتح المصراع، فأمرق أنا بجسمى النحيل الرشيق إلى داخل الشقة، فى حين يقوم «دومينيكو» بالمراقبة من الخارج، كنت أستولى على الأشياء الصغيرة، مثل التحف، والمنافض الفضية، وأضع كل شىء فى الحقيبة ونعود، أنا و دومينيكو، سالكين الطريق الذى جئنا منه.

كنا نحب السرقات، أنا و «دومينيكو»، بصورة مذهلة، ولكن العلاقات بيننا لم تكن كذلك، لقد أحب كل منا الآخر، لكن هذا الحب النابع من تواطئنا لم يمنعنى من احتقاره، كان فى ظاهره نموذجًا للشاب «ذى الشعر الطويل» وهو فى أعماقه بورجوازى صغير، فهو لا يقرأ قط، ولا يسمع من الموسيقى إلا المكررة المملة، ولا يستهويه الرقص، والشىء الوحيد الذى يحمد فيه أنه لا يتكلم، إذا ضمه جمع من الأصدقاء، فهو جاهل ولا يحسن الحكم على الأشياء.

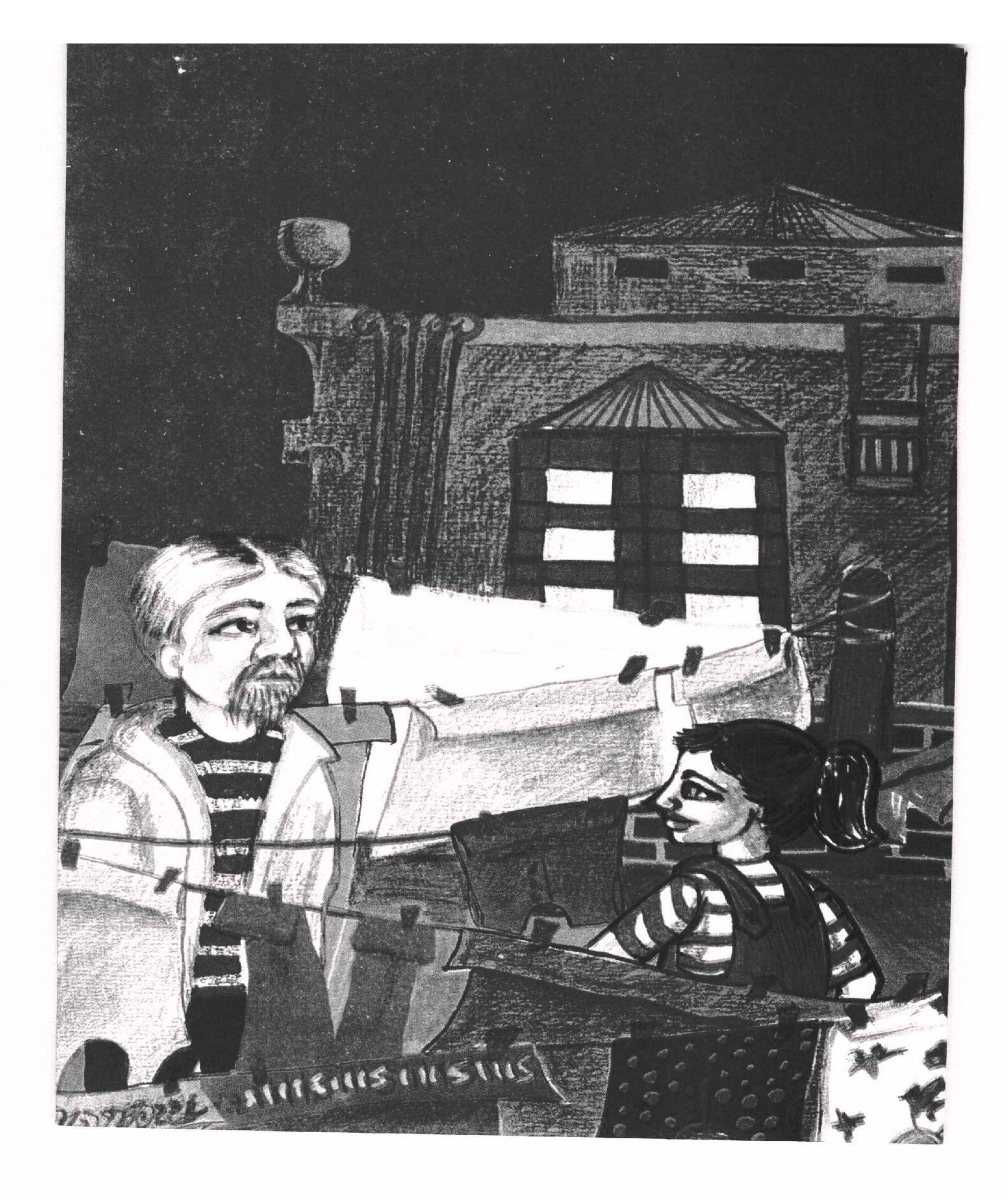
ولقد أقدم على السرقة لأنه يتطلع إلى العيش فى روما وعدم العودة إلى قريته، والآن وهو يعيش على

عاتقى، فلعله يفضل البعد عن المخاطرات ويميل إلى الدعة والراحة، حياة ظاهرها التأمل، والتفكير وواقعها الخمول والكسل.

وكان من الطبيعى أنه أراد فى البداية أن نكف عن السرقة، ولكننى أجبرته على الاستمرار تحت تهديدى له بالطرد والإبلاغ عنه، ومن ناحية أخرى، فإن عجزه عن التصرف فى المسروقات التى كنت أحتجزها منه وأضعها فى إحدى الحقائب المملوءة بالخرق، كان يشق عليه.

كان يود أن يحقق حلم حياته بأن يجمع من عائد هذه المسروقات رأس مال صغير يتاجر به فى طوابع البريد، كان أشبه بالنملة وكنت أشبه بالصرصار، بطلى الخرافة الشهيرة. وإن كان هو بخداعه وشعره الطويل أقرب إلى الصرصار، وأنا بأسلوبى الواضح أقرب إلى النملة.

إننى أتذكر أول ليلة سرقت فيها، كان ضوء القمر ينير شرفات أصدقائى التعساء وكنت أشعر وأنا أتأمله، وهو فى كماله، بانفعال يجعل الدموع تنساب من عينى وأنا أغامر هذه المغامرة الحقيقية لأول مرة فى حياتى، وإذا كنت قد شعرت بالحب



نحو «دومينيكو» فإن ذلك الشعور كان لا يلبث أن يتبدد، فما أن ننتهى من تنفيذ إحدى السرقات حتى أشعر أننى أبغضه.

وتوالت الأحداث سريعًا، إننى لا أفكر برأسى، أو أفكر به قليلاً، وأتصرف بدافع من غريزتى، وبهذه الغريزة قررت سرقة طبيبى النفسانى، وبدأت أمهد لذلك، ولكن لماذا طبيبى النفسانى، بالذات؟ سؤال لم أفهمه إلا فى اللحظة الأخيرة، وأنا أرتب لهذه السرقة مع «دومينيكو».

حكيت «لدومينيكو» قصة علاقتى مع الطبيب، وفى النهاية تساءلت: لماذا تروق لى فكرة سرقته كثيرًا؟ ولم يتبين «دومينيكو» مغزى سؤالى. إلا أن إجابتى كانت حاضرة: إننى مازلت أحب الطبيب، وهذه السرقة فى حقيقتها، لم تكن إلا حجة لاستئناف علاقتنا بأية وسيلة.

وجاءت الليلة الموعودة، ونظرت إلى السماء، وتطلعت إلى القمر، كان يبدو خرافيًا، وهو فى كامل استدارته، بحيث كاد أن يفقدنى صوابى، وانتزعت نفسى، بالرغم منى، من تأمل القمر، واعتليت النافذة وقفزت فى خفة إلى الداخل، واختبأت بضع

لحظات خلف الستائر وأنا أفكر فى الأشياء التى سأستولى عليها، وقررت أن أسرق مشبك ورق كبير فى حجم رأس الطفل من النحاس الخالص، وكان ما يزال على المكتب بجوار المصباح، وقلت لنفسى إنه من الممكن ـ فيما بعد ـ أن أعيده للطبيب وأقنعه بأننى وجدته عند أحد تجار العاديات، وهكذا شىء يجر شيئًا آخر.. كان مكتب الطبيب فى نهاية الحجرة، مقابل النافذة، وأزحت الستائر وتقدمت بعض خطوات نحو المكتب.

وفجأة أضىء المصباح، ورأيت الطبيب جالسًا ينظر إلىّ، وقال بكل هدوء: مساء الخير! لقد أخبرنى شخص يدعى «دومينيكو».

فما كان منى إلا أن صحت صيحة حانقة:

ـ الوغد!

ـ لقد هرب الوغد الآن، فلم يعد يحتمل، وكلفنى أن أخبرك أنه لن يعود، كما أخبرنى أنه سيبدأ حياة جديدة بتجارة الطوابع.

وأسقط فى يدى، وتصرفت بوحى من غريزتى فى هذه المرة أيضًا، فاقتربت من المقعد واستلقيت عليه وطلبت من الطبيب أن يأخذ مكانه خلفى كما يحدث

أثناء جلسات التحليل النفسانى، وقلت له: «الآن، لن تقول إننى على ما يرام، لقد سطوت على إحدى عشرة شقة فى ستة أشهر، وكلها تخص أصدقائى، إننى لم أتصرف فى المسروقات، فحتى الأمس كنت ما أزال أخفيها فى بيتى، ولابد أن ذلك الأبله قد استولى عليها ليستعين بها على حياته الجديدة».

ساد السكوت لحظة، وأخيرًا سمعت الطبيب يقول بصوته البغيض: «أنت على حق، ولكن عليك أن تذهبى الآن لتنامى، وموعدنا غدًا... لحظة لكى أنظر فى مذكرتى... نعم فى السادسة مساء».



(الابن والأم)

من اليابان

تأليف: جوزان هيزاءو

تلقى مدرس الصف الأول بإحدى المدارس الابتدائية، الواقعة بالقرب من المعسكر الأمريكى، استدعاء من الشرطة المحلية فى (أستوجى)، بصدد أمر يتعلق بأحد تلاميذه...، وحين كان فى حجرة الانتظار دخل المأمور، وتبعته سيدة تتألق عيناها بحيوية طاغية، أثارت دهشة المدرس..، وقدمها المأمور إليه قائلاً، وهو يجلس فى مواجهته: «آسف لإزعاجك.. الآنسة مشرفة اجتماعية فى إدارة إصلاح النشء فى المدينة... ولما كان قسم الشرطة التابع لنا قد أنشئ حديثًا، وليس لدنيا قسم خاص بالأحداث، فقد طلبنا إلى الآنسة الحضور لمعاونتنا، وأود أن أخبرك بأن الموضوع الذى استدعيناك من أجله ليس خطيرًا، فلاداعى لأن تقلق!».

وتدخلت المشرفة قائلة: «إن الموضوع كما ذكر السيد المأمور ليس خطيرًا فى حد ذاته.. فإن تلميذك لم يرتكب - فى الواقع - جريمة كبرى... كل ما هنالك أنه قام بإشعال النار فى حصن قديم، ولكن بعض المهمات المملوكة للأمريكيين كانت مودعة فى هذا الحصن، ونحن بالطبع نشك فى أن يكون هذا الغلام قد أشعل النار متعمدًا... لا بد أنه كان يلعب لعبة القراصنة، أو أى شىء من هذا القبيل... غير أنه يرفض بإصرار أن يفتح فمه، ونحن فى حاجة إلى أى عذر أو تعليل نذكره فى التحقيق!».

وقال المأمور: «إننا لا نريد أن نحتجزه هنا أكثر مما احتجزناه، ولكننا لا نستطيع أن نخلى سبيله ما دام التحقيق لم ينته، ولذلك طلبنا إليك الحضور، فأنت معلمه، ولابد أنك تعرف عنه ما يزودنا ببعض المعلومات عن طباعه، وعن حياته العائلية، وما إلى ذلك.. ومن ثم نستطيع أن نكتب تقريرًا بنتيجة التحقيق، ونطلق سراحه».

فانحنى المدرس فى أدب وقال: «لا يسعنى إلا أن أشكر لك المشقة التى تجشمتها من أجل هذا الطفل؟... فقال المأمور: «لندخل فى الموضوع!».

وفتحت المشرفة ملفًا، وأخذت تقرأ بعض ما جاء فيه:

«ثاروتزومى.. ستة عشر عامًا وشهران.. ولد فى (سابيان)، وهو الآن بالفصل الدراسى الثانى من السنة الأولى بمدرسة «سان جوزيف» الابتدائية ويتمتع بمنحة «أدان» الدراسية..، وكان والده يعمل خبيرًا فى الأرصاد لحساب مكتب الإدارة اليابانى، وتوفى عام ١٩٤٠، أما أمه فكانت موظفة فى شركة «نانيو كاهاتو»، ومن المرجح أنها لقيت مصرعها عند استيلاء الأمريكيين على (سابيان)...».

ثم وجهت المشرفة الكلام إلى المدرس قائلة: «كيف يكون ثارو فى مثل هذه السن، ولا يزال فى الصف الأول؟... إنه متأخر، أليس كذلك؟»

فقال المدرس : «عند انتهاء الحرب، أرسل «ثارو» إلى (هاواى) مع مجموعة من الأيتام، وألحق بإحدى المدارس الأمريكية التى تكاد أن تكون معادلة لمدارسنا الإعدادية، وقد قضى بها ست سنوات، جاء بعدها إلى اليابان، وسجل بمدرسة «سان جوزيف»... وكان من المفروض أن يلتحق بالصف الخامس، إلا أن معرفته باللغة اليابانية لم تكن كافية...».

ـ ماذا تقصد بمنحة «أدان»!

ـ إنها ليست منحة بالمعنى الدقيق.. كان «أدان» ضابط استعلامات أمريكيًا مسئولاً عن الأيتام فى (سابيان)، فاختار منهم خمسة تكفل هو شخصيًا بنفقات دراستهم، بشرط أن يتجهوا فيما بعد إلى علم اللاهوت...، ولدينا ثلاثة من هؤلاء الأطفال فى مدرسة «سان جوزيف».

ـ عندما مات والد «ثارو» كان الطفل فى الرابعة من عمره.. فالأرجح أنه لا يتذكره، أما أمه، فهل تستطيع أنت أن تحدثنا أى صنف من النساء كانت.

ـ كانت من ذلك الصنف من النساء الذى يمكن أن نسميه بالنساء المثقفات...، فقد كانت حاصلة على شهادة من جامعة (طوكيو)، وكانت مديرة الموظفات بالشركة التى كانت تعمل بها فى (سابيان)..، ولكنها بعد ذلك قامت بإنشاء مركز للترفيه عن الضباط يسمى «هاللو»...، وكانت جميلة جدًا، بل لعلها مفرطة الجمال..، فكانت النساء يكرهنها!.

ـ وهل كان الطفل يعيش فى هذا الوسط؟

- كلا، فقد ذكرت لك أن أمه كانت مفرطة الجمال، ومن ثم كانت فرصة اللهو والمتعة كثيرة أمامها، فكانت مشغولة لدرجة لا تستطيع معها أن تهتم بالطفل،ولذلك عهدت به إلى مبشر فى إحدى جزر المحيط الهادى، كان يعيش هناك منذ أيام سيطرة الألمان على تلك الجزر!.

- إذن، فالطفل لم يتأثر - بأى حال - بالحياةالتى كانت تحياها أمه؟.

- كلا، بل إنه يجهل تمامًا ما يمكن أن يعرفه شاب فى مثل سنه عادة..، فمثلاً هولم يذهب إلى السينما مطلقًا...، وهو مجتهد فى عمله ولكنه يحيى حياة صارمة قاسية، إلى درجة تثير قلقى فى بعض الأحيان!

فقالت المشرفة، وهى تقلب صفحات الملف الخاص بالغلام:

- جائز!... ولكن هل عملت أنه فى الثالث من مايو، تنكر فى زى فتاة، وراح يبيع زهورًا فى حى (جينزا)؟.. لقد لمحته إحدى زميلاتى ووجهت إليه إنذارًا...، وهل تعرف أنه استدرج - فى يوم من



الأيام - بعض الجنود الأمـريكيـين من أمـام باب المعـسكر، واصطحـبـهم إلى طوكـيـو... ، ومنذ أيام قليلة، وجدوه - فى الساعة الثالثة صباحًا - بالقرب من مـحطة (أبربا) على خط قطار (سـجـانى)، وهو فى أشـد حـالات السكر.. ، وكـاد أن يدهمـه قطار الصباح لولا أنه أنقذ فى آخرلحظة؟

وسادت - بعد ذلك - لحظة صمت، لم يكن يقطعها سـوى صـفـيـر الرياح التى كـانت تعـوى خـلال الأعشاب الجافة فى الحقول.

* * *

وما لبثت المشرفة أن قالت، محاولة أن تخفف من ألم المدرس:

- إنك تعرف الطفل منذ زمن بعيد، وأنا واثقة من أنك لم تكن تتـخيله إلا فى أفضل صـورة، وأنه لم يرتكب أمـامك أبدًا مـا يضطرك لأن تلومـه أو توبخـه... ولكن من الجـائز أن تكون أخـلاقـه قـد تغيرت فى المدة الأخيرة... ، أصبح يتنكر فى صورة فتاة، ويسكر، ويلعب لعبة القراصنة، ويلهو بإشعال النار فى مكان من المحظور دخـوله حظرًا تامًا... ،

هذه الأعمال التى تختلف فى صورتها، ولكنها تشكل نهجًا واحدًا من السلوك، يبدو أنها تعبير عن التمرد على سائر الأوضاع.. ، أو ربما كان مصابًا بخلل نفسى... ، ولكن لابد أن يكون ثمة سبب أساسى لهذا التحول... ،إن الشخصية لا تتحول هكذا بين يوم وليلة، ومن المحتمل أن تكون هناك ذكرى مؤلمة تدفعه لأن يتصرف على هذا النحو... ، فهل تستطيع أن تمدنا بأى معلومات فى هذا الشأن؟

فقال المدرس، وهو يهز رأسه: «لست أعلم إن كان الحادث الذى أعرفه سيفيدكم، ولكنه - بلا شك - قد أثر فى «ثارو» تأثيرًا شديدًا... ، فقد حاولت أمه أن تقتله يومًا، وقد عثرنا عليه فاقد الوعى تحت إحدى الأشجار، فى هضبة (شيما لينا)، وقد التف حبل حول رقبته ثلاث لفات، وكان يضغط على رقبته ضغطًا شديدًا، حتى إننا لقينا مشقة فى فكه وإزالته، إذ كان مدهونًا بالصابون، ليسهل انزلاقه!... ومع أننا أدركنا الدافع وراء هذه الجريمة، فإنها - من ناحية العقل والضمير - كادت تخرجنا عن وعينا، وقد تجشمنا مشقة كبيرة فى

إعادة الحياة إلى «ثارو» حتى لقد كنا فى شك كبير من أن الروح ستعود إليه، ونقلناه فى سيارة «جيب» إلى المستشفى العسكرى، بعد أن أجرينا له عملية التنفس الصناعى... ، فى ذلك الحين - كما تعلمون - انتحر ثلاثون ألفًا من اليابانيين المدنيين، إذ كانوا على ثقة من أن الأمريكيين سيقتلونهم على أية حال!.. ، انتحرت عائلات بأسرهابالقنابل اليدوية... وهناك عائلات أمسك كل فرد من أفرادها بيد الآخرين، وألقوا بأنفسهم من فوق الجبال إلى البحر.. ، ولكن فى جميع هذه الحالات كانت الجثث توجد مجتمعة، أما حالة «ثارو»، فهى الوحيدة التى وجد فيهاطفل واحد بمفرده!.

وساد الصمت لحظة، ثم قطعه المأمور قائلاً:

«إنها قصة رهيبة!»... ، وأردف - بعد لحظة - قائلا: «لابد أن هذا الحادث كان ذا تأثير عميق فى نفسية الطفل!».

وتململ المدرس قليلاً فى مقعده، ثم قال: «وهل أستطيع أن أراه الآن؟.. أود أن أوجه إليه بعض الأسئلة...، وقد خطرت لى فكرة، قد تهدينا إلى الطريق»... فقال المأمور: «بكل تأكيد»!.

وقادته المشرفة إلى باب فى الناحية اليسرى، قائلة له: «من هنا لوسمحت!».

كان «ثارو» جالسًا على الأرض، فى غرفة ضيقة مظلمة، مخصصة للشبان الموضوعين تحت المراقبة، وكان يتأمل السماء خلال نافذة صغيرة، كأنها فتحة فى قفص عصفور، وهو يفكر فى الأيام الأخيرة التى قضاها فى (سابيان).

كان الظلام الخافت، والرطوبة اللزجة، والسماء المعتمة، والصمت الشامل، والإعياء الشديد... ، هذه كلها كانت تذكره بمغارة (سابيان) قبل سنوات.. حيث كانت الصخور مغطاة بالطحالب، والظلمة والرطوبة يجثمان طوال النهار والليل... فلم تكن الشمس تعرف طريقًا للمغارة إلا قبيل أفولها، إذ ترسل بصيصًا منها، فينير جدران المغارة، ويكشف وجوه المختبئين فيها!.. كانت هناك فتاة لم يبق منها سوى الجلد والعظم، وقد راحت تبحث - بين الصخور - عن بعض حبات ساقطة من الأرز، فتلتقطها وتفركها ثم تأكلها واحدة بعد واحدة!.. وكان خلفها جندى زائغ العينين، أخذ يسد رمقه بالعشب البرى، وقد سالت عصارة خضراء على

زاويتى فمه!..» ثم لم يلبث هذا المشهد أن اختفى فى أدراج الظلام.

وفى أحد تلك الأيام، قال «ثارو» فى نفسه: «حان وقت الذهاب لإحضار الماء»... كان ينتظر هذه اللحظة نافذ الصبر، فمنذ أن أقام فى المغارة وهو يشعر بسعادة غامرة لوجوده بصحبة أمه، وقيامه بخدمتها!... كان ينتظر منها كلمة، وقد تعلقت عيناه بمحياها الجذاب... ولم تلبث أن قالت له: «اذهب لتحضر لى ماء يا ثارو!»... كان حين يسمع صوتها ينتفض حبًا وحنينًا، وكان على استعداد لأن يعمل أى شىء من أجلها.

وكان نبع الماء العذب على مسافة خمسين مترًا إلى أسفل المغارة، فكان لزامًا عليه أن يتدلّى على طول الصخرة المدببة كل هذه المسافة، ممّا كان يسبب له الدوار، ولو أنه لم يكن يحمل إلا زجاجة فارغة... فضلاً عن أن الجنود الأمريكيين الواقفين فوق الصخرة، كانوا يطلقون النار على كل شىء يتحرك!... ولكن «ثارو» لم يكن خائفًا على الإطلاق، ولم يكن مدركًا للخطر بأية حال...، وإنما كانت السعادة تفيض فى قلبه، إذ يشعر بأن فى وسعه أن يقدم إلى أمه شربة ماء!..

وحدث نفسه قائلاً: «كم كان عمرى حينذاك؟»... ثم راح - وهو يحك رأسه فى جدار «الزنزانة» - يتلو عن ظهـــر قلب: «أيهـــا العـــابر، اذهب وقل لـ «لاسيديمون» إننا تنفيذًا لأوامر الملك، نرقد هنا»... ، وكانت أمه قد لقنته القصيدة، وجعلته يكررها مرارًا حتى حفظها..

وقالت له أمه: إن «لاسيديمون» هى «أسبرطة»... وقد تصدت حفنة من جنودها - قبل ألفى عام - لجيوش الفرس، وأوقفت زحفها، فى مكان يسمى «ترموبولين».. وماتوا جميعًا فى المعركة، فأقيم - فى ذلك المكان - نصب تذكارى كتبت عليه هذه الكلمات: «ألم يكن أولئك الإسبرطيون شجعانًا؟.. يجب ألا ننساهم!»

* * *

كانت أمه تحاول - بالأحلام الجميلة - أن تنسيه قسوة تلك الأوقات الرهيبة...، ولكن الكارثة لم تلبث أن حلَّت أخيرًا... وإنه ليتذكر كيف أن الآباء والأبناء كانوا يتماسكون، ثم يلقون بأنفسهم من أعلى الجبل متعانقين أومربوطين جميعًا بحبل متين...، وكانت مياه البحر تتلقاهم...، وفى كل يوم كانت تختفى

مـجـمـوعـات أمـام عـينيـه بـهـذه الطريقـة!... ، وكـان «ثارو» يتصـور أنه سيرتمى فى البحـر - فى النهاية - وهو ممسك بيد أمه، ولذلك لم يكن يشـعر بأى خوف أو حزن على الإطلاق!...

وكانت الشـمس الآفلة تصـبغ السـمـاء بلون وردى شـاحب، فى تلك الأمسية الهادئة التى تناولت فيـهـا أمـه حبـلاً، وطلبت منه أن يخـرج مـعـهـا من المغـارة وهـى تقـول له: «إنك لا تحب أن أفـعل بك هذا على مشـهد من كل هؤلاء القوم، فتعال إلى الخارج!»

وفـى تلك اللـحظة، لـم يكـن «ثـارو» يتــصــــور أنـه سيـمـوت بمـفـرده... ولكنه حـين أدرك أنهـا تنوى أن تخنقــه، أذعن لإرادتـهـا، وسـار وراءها حـتى أعلى الجـبل، مـبـديًا لـهـا وجـهًا مـشـرقًا باسـمًا... كى يسعدها!.

* * *

(٢)

أقبلت المشرفة فقادت «ثارو» إلى الغرفة المجاورة، حيث جلس - على المنصة - المدرس الذى كان يعرفه «ثارو» باسم «سان جان».

وكان «سان جان» رجلاً من (أوكيناوا)، يعمل مديرًا لمزارع قصب السكر فى (سابيان)...

وتقدم منه «ثارو» فراح المدرس يعظه بطريقته المعتادة، التى كانت تبعث على الضيق... ، وبينما كان «ثارو» يصغى إليه، وهو مطأطئ الرأس وقعت عينه الشاردة على المسدس المتدلى من حزام شرطى كان جالسًا يكتب على منضدة بجوار الجدار... ، فقال فى نفسه: «هذا المسدس من نفس النوع»، .. وقد خطر بباله مسدس كان أحد ضباط البحرية قد سمح له - حين كان فى المغارة - أن يلعب به!.

وواصل المدرس لومه، قائلا: «إنك تنكرت فى زى فتاة، ورحت تبيع الزهور فى حى (جينزا)».. ، فتساءل «ثارو» - فى نفسه - عمن يمكن أن يكون قد أخبر المدرس بهذه الأمور... ، أهى المشرفة؟ أم «توناكو» زميله فى الدراسة، الذى أعاره رداء الفتاة؟

واستطرد المدرس متسائلاً: «إنك لا تحب أن تكون عالة على غيرك، ولذلك فكرت فى أن تكسب عيشك بنفسك، أليس كذلك؟ وإننى لأحترم نزوعك

إلى الاستقلال، ولكن ما الذى يدعوك إلى أن تتنكر فى زى فتاة، وتبيع الزهور؟

قال «ثارو» فى نفسه: «أما فى هذه فإنك أخطأت»! ... ، لقد ارتدى زى بائعة زهور حقًا، ولكنه لم يكن يبيع زهورًا ... ، إن المدرس لم يكن يدرى شيئًا!..

كان «ثارو» قد سمع فى (هونولولو) أن أمه تدير حانة فى (جينزا)... فما أن وصل إلى طوكيو حتى بحث عن الحانة... ، واهتدى إليها، ولكن دخول الحانات محظورعلى الأحداث، فيما عدا بائعات الزهور، وعازفات «الأوكورديون»... ، والجميع يعرفون ذلك!.. فما كان من «ثارو» إلا أن استعار رداء بائعة زهور، ولبسه فى أمسية يوم من أيام الأحد - ثم توجه إلى الحانة التى كانت أمه تديرها...، ولم يكن بها رواد كثيرون، وكانت أمه منحرفة المزاج، فما أن رأته حتى صرخت فى وجهه فى غضب: «يا لك من وقح!... كم مرة حاولت أن تدخل هنا!... إن روادى لا يرغبون فى زهورك!»، وفى مرة أخرى، أمسكت خادم بثوبه، وألقت به إلى خارج الحانة..، ومع ذلك فقد عاد ثانية!..

***

ومضى المدرس (سان جان) فى توبيخه قائلاً:

«... وكنت تصحب - فى سيارات الأجرة - أناسا ممن يأتون من (كوريا) فى أيام السبت، وقد جلب عليك هذا العمل بعض المال، ولكننى أشعر بالأسف حين أتصوّر أنك تستغل معرفتك باللغة الإنجليزية فى هذه الأغراض الوضيعة؟.

وهنا قال «ثارو» فى نفسه: «وهذه المرة أيضًا، لم تفهم شيئًا يا (سان جان)!...، فأنا لم أكن أسعى لكسب النقود لنفسى، وإنما رأيت أن رواد الحانة - التى كانت أمى تديرها - قليلون، فحاولت أن أجيئها بمزيد من الرواد!».

لقد أراد أن يساعد أمه دون أن تعلم، ولكنه ارتكب خطأ جسيمًا، ذهب يومًا إلى حانة صغيرة، بالقرب من معسكر (فيزقام) - الذى يعتبر ملتقى لسائقى سيارات الأجرة - كى يطلب سيارة، فبادره أحدالسائقين قائلاً: «إن صاحبة الحانة التى تتحدث عنها هى أمك، أليس كذلك؟.. إنك حقًا ولد بار جدًا، ولكن هل تعلم أيها الصغير ما تفعله أمك؟

وإذ سكت «ثارو»، أردف السائق قائلاً: «إذا كنت لا تعرف، فسأتيح لك معرفة ذلك!"... ثم استدعى

سـائقًا آخـر وأشـار له نـحـو «ثارو» وأسـر فى أذنه كلمات...

فى تلك الليلـة، عاد «ثارو»متـأخـرًا إلى عنبـر نومـه فى مـدرسـة «سـان جان» وارتمى فوق سـريره وهو يتلوى من الألـم...، إن أمه لم تعد أمـه.. إنهـا ليست سـوى امـرأة!... ولم تـعد لديه رغبة فـى هذه الحـيـاة التى أفـاق فـجـأة، فوجـدهابهـذا القـدر من القسـوة والخسـة!.

وأراد أن يموت فى تلك الليلة بالذات، فـأخـرج من خزانته كل صور أمه وخطاباتهـا، ومزقهـا وألقى بها فى وعـاء القمـامـة بالمطبخ، وتطلـع حـوله خـشيـة أن يكون قـد نسى شـيـئًا منهـا، ولكنه لم يكن قـد نسى شـيـئًا على الإطلاق.... وحـين أدرك أن كل مـا بقى عليـه أن يفـعله، وهو أن ينام قليـلاً قـبل مـرور أول قطار، صُدم لقصر الفترة التى بقيت له فى الحـيـاة، فانفجر باكيًا!.

واسـتطرد المدرس «سـان جـان»، بلهـجـة التـأنيب والاتهـام قـائلاً: «... ولقـد انتـقلت من سـيئ إلى أسـوأ... هـذا طبـيـعى!... ويبـدو أنك كنت تسـيـر مـخـمـورًا تمامًا، على طول خط السكة الحـديدية،



وكان مصرعك وشيك الحدوث... ما كنت أظن مطلقًا أن من الممكن أن تنحدر إلى درجة أن تشرب الخمر وتسير مخمورا!»

فقال «ثارو» فى نفسه: «هذا صحيح، ولكنه فى نفس الوقت خطأ!، فأنا لم أكن قد شربت خمرًا، ولكن من المحتمل أننى كنت أترنح كالمخمور!... كان الفجر وشيكًا، والمصابيح الكهربائية ترسل نورها على طول رصيف المحطة، وعلامة الإشارة مفتوحة إيذانا بأن قطار الصباح لن يلبث أن يمر بين لحظة وأخرى، فخلعت سترتى، وألقيت بها فوق العشب، ثم استلقيت منبطحًا بين قضبان السكة الحديدية، أنتظر أن يمر القطار فوق جسدى، ولقد مر القطار، ولكنه لم يمسنى، وسمعت العامل الذى أخذنى إلى ناظر المحطة، يقول له: «لو كان يرتدى سترة، لعلقت أطرافها بالقطار، وقضى عليه، إذ كان ينام بين القضبان...، ولكنه لم يكن يرتدى إلا قميصًا، وهذا هو الذى أنقذه!»».

بيد أن فكرة الموت ظلّت تسيطر على «ثارو». وفى ليلة من ليالى الخريف سرق كمية من البترول من المطبخ، واجتاز الحقل المترامى خلف عنبر النوم،

ودخل خندقًا متهدمًا... ثم سكب البترول فوق جسمه، وأشعل النار فى أكمامه... ولكن الاشتعال كان ضعيفًا، فإن البترول الحديث لا يلتهب بسرعة كالبترول القديم...، وسرعان ما أطفأت الرياح اللهب الضعيف، فحاول مستميتًا أن يشعل النار - من جديد - فى أماكن أخرى من ملابسه، ولكن الاحتراق كان بطيئًا، وقد تصاعد دخان لفت الأنظار، فلم يلبث الناس أن حضروا، فوجدوا «ثارو» مختنقًا من الدخان، وقد فقد وعيه.

وقال له رجل الشرطة: «لماذا أشعلت النار فى مهمات الجيش الأمريكى؟ سنخلى سبيلك إذا قلت الحقيقة، وإلا فستلقى عقابك!».

ولم يكن «ثارو» يعرف أن بالخندق مهمات... فضلاً عن أنه لم يفلح فى إشعال النار فى نفسه !.

ووجد نفسه يصرخ فجأة: «اقتلونى!.. اقتلونى!..».

فصاح «سان جان»: «اسكت!"... ثم نهض وغادر الغرفة مسرعًا كما لو كان قد تأكد أن «ثارو» قد أصيب بالجنون.

ولم يلبث أن دخل ضابط شاب، فنزع حزامه وألقاه على المنضدة والمسدس فى جرابه، ثم استلقى وأغمض عينيه...

ونظر «ثارو» إلى المسدس طويلاً ... وكان الشرطى الآخر لا يزال منهمكا فى الكتابة، على الكتب الملاصقة للجدار، موليا ظهره نحوه ... فقال «ثارو» فى نفسه: «هذه هى الفرصة!».

وفى حذر، اتجه نحو حزام الضابط النائم، وأخرج المسدس من جرابه وتحسس زر الأمان، ثم جذبه إلى الخلف، ونهض فجأة، وضغط الزناد فإذا بقطع من الجبس تتطاير من الجدار المقابل!.

وقفز الضابط النائم مرسلاً صرخة مدوية، واختبأ تحت المكتب، أما الشرطى الآخر، فقد ألقى بنفسه وراء المكتب، وأخرج مسدسه، وأطلق النار على الصبى الذى كان يمسك المسدس، والدخان يتصاعد من فوهته !

وتهالك «ثارو» نحو الجدار الذى خلفه، وأطلق زفرة طويلة، وقد تفجرت الدموع من عينيه ...، ثم سقط على الأرض!.

* * *

الأستاذ والتلميذة

من الهند

تأليف الكاتب الهندى: بورشوتام دوربهال

قال الأستاذ «أرونا»:إننى أشعر بالتعب.

فأجابت «أرونا» بنبرة حنان فى صوتها: لقد أسرفت فى العمل يا أستاذ.

فاستطرد الأستاذ وهو يلتفت إلى الفتاة: وأنت أيضًا يبدو عليك الإرهاق. فأجابت الفتاة وهى تبتسم لتطمئنه: لا أهمية لذلك مطلقًا.

كانت «أرونا» تنحدر من أسرة ثرية. وهى منذ طفولتهاتدرس الموسيقى والرقص والرسم. ومع أنها لا تكاد تبلغ العشرين من عمرها إلا أن موهبتها الموسيقية حققت لها نوعًا من الشهرة، وكان مدرسها الأستاذ كومول مدير أكاديمية الموسيقى التى تحمل اسمه يشعر بحنان بالغ نحو هذه

التلميذة الصغيرة اللامعة. وكانت «أرونا» تشعر ببالغ السعادة إذ ترى أنها تحظى بتقدير مثل هذا الموسيقى الشهير.

كان الأستاذ الزاهد وتلميذته يكوّنان وحدهما فرقة تتمتع بإعجاب شديد من قبل الجمهور. وكانا عائدين لتوهما من حفل موسيقى استطاعا فيه أن يحققا نجاحًا مرموقًا. ومع أن عددًا كبيرًا من الموسيقيين الشهيرين شاركوا فى هذا الحفل إلا أن الحفاوة التى قوبل بها الأستاذ وتلميذته كانت أكثر حماسة مما قوبل به سواهما، لقد غنت «أرونا» وعزفت على آلة «الفينا» ورقصت بفن وبإحساس. وكان «كومول» فى مصاحبته لها قد استسلم لذلك الصوت وشاعرية تلك الحركات الرشيقة التى حملته إلى قمم من السحر والفتنة التى يعجز عنها الوصف. لقد رقص هو نفسه رقصة «شيفا». كان فنانًا عظيمًا وكانت «أرونا» تحبه وتبجله.

وبعد عودتهما بقليل أعلنت «أرونا» أن العشاء جاهز، ولاحظ الأستاذ قائلاً: إننا لا نجلس إلى هذه المائدة أبدًا قبل أن نكون قد شكرنا «شيفا». أيمكن أن تنسى ذلك يا «أرونا»؟.

فتمتمت «أرونا» قائلة: إننى أسألك المغفرة يا أستاذ.. وقامت فى الحال بتقديم الشكر.

أشعلت مصباحًا صغيرًا من الفخار، ووضعته فوق صينية من الفضة ومعه كمية من البخور وبعض الزهور. وأمام هذه القرابين قام الأستاذ بتلاوة الصلاة للإله «شيفا»، وكان صوته يهتز من شدة الانفعال والتأثر، وكان قلبه يفيض بنشوة عجيبة.

شىء غريب، لقد تمنى لو أنه اقترن بـ «أرونا»، ثم بكى الطفل الصغير ورمقها مرة أو مرتين بنظرة خاطفة، ولكنها كانت غارقة فى شكرها مضمومة اليدين مغمضة العينين، فلم تلاحظه ولم تدرك ما يعتمل فى نفسه.

كيف يمكن أن يخطر ببال «أرونا» أن الأستاذ كان فريسة اضطراب عميق؟ إن مكانته بالنسبة لها كما هى بالنسبة للآخرين، هى مكانة الوالد العظيم.

وما أن انتهت من الشكر حتى جلسا أمام وجبتهما الخفيفة، وأكل الأستاذ بطرف شفتيه، ثم نهض وحذت «أرونا» حذوه. وبعد انصراف التلاميذ



وصل الأستاذ إلى حجرته وجلس جلسته المفضلة ساقًا على ساقٍ، يفكر ويتأمل. أن واحدًا من التلاميذ وبخاصة، عند هبوط الليل، لا يمكن أن يدخل محرابه أبدًا. ولكن «أرونا» التى بدأت تلاحظ الغرابة على أستاذها لم تستطع أن تتركه بمفرده. وعندما ظهرت عند عتبة حجرته، رفع «كومول» عينيه وسألها بصوت مبحوح.

- لماذا جئت يا «أرونا»؟.

- سامحنى - يا أستاذ - لقد خيل لى أنك تتألم.

- إننى أتألم فعلاً، ولكن...

وعجز «كومول» عن تكملة جملته.

- لماذا تتردد فى الإفصاح لى عن دخيلة نفسك يا أستاذ؟.

- أنت لا تستطيعين أن تفهمى يا «أرونا»

- ولكننى قد أساعدك إذا قبلت أن تطلعنى على سبب آلامك. فهمهم الأستاذ بنبرة يائسة :

- إننى أشعر أننى مقبل على حالة من الجنون.

- لماذا يا أستاذ؟.

- أتريدين أن تعرفى سبب ما أعانى من عذاب؟ اذهبى، هذا أفضل.

ولما لاحظت «أرونا» فى صوت أستاذها شيئًا من القسوة، عادت إلى حجرتها فى هدوء.

لقد كرس الأستاذ حياته بأسرها للفن أكثر من عشرين عامًا سالكًا حياة الناسك متبعًا نظامًا صارمًا. ولم يسمح أبدًا بأى شعور دنيوى أن يعكر صفو روحه أو حواسه، كان الرقص وتعليم الرقص يمثلان حياته ذاتها. ومع ذلك فمنذ اليوم الذى اجتازت فيه «أرونا» عتبة الأكاديمية طرأ عليه تغيير غريب، فقد راح عقله وقد أفلت من كل نظام، يهيم فى طرق مجهولة، كان تفكيره فى «أرونا» قد بدأ يزداد شيئًا فشيئًا، فعندما تكون بالقرب منه، لا يستطيع أن يحول عينيه عنها، وفى غيابها، فإن صورتها لا تبارحه. وكانت هذه الصورة تأتى لتقلقه حتى فى أحلامه.

كانت «أرونا» تجهل هذا كله. كانت تجهل أنها مسئولة عن اضطراب أستاذها. ومع ذلك فقدساورها القلق من أن تكون قد ارتكبت خطأ ما ربما أحفظ عليها قلب أستاذها.

وفى غمرة دهشتها وحيرتها لم تكن تدرى ماذا تصنع لتعينه على استعادة هدوء نفسه وطمأنينتها.

ونامت نومًا عسيرًا ،وقد صممت أن تبحث حتى فى نعاسها عن أخطاء فى سلوكها الشخصى.. واستيقظت فى ساعة مبكرة مضطربة الفكر. ولما لم تقو على النعاس مرة أخرى، فقد غادرت حجرتها.



ساحرة

من اليابان

تأليف: تاتوزو أيشيكاوا

إحساس ما كان ينتابنى منذ فترة من الوقت، ومع أننى لا أثق بسائر أحاسيسى، إلا أن هذاالإحساس كان يشقينى.

كانت «مازا كورينو» صديقتى، وهى فتاة رقيقة، كثيرة الكلام، ذات بشرة صافية اللون، ناعمة الملمس أشبه بأوراق الورد. فعندما كنت أضمها بين ذراعى، كنت أشعربجسدها مرنًا طيّعًا لدرجة كنت أعتقد معها أننى أحس به يذوب على صدرى، وكنت أجد بين ذراعى جسدًا مستسلمًا، جسد امرأة غائبة عن وعيها، كان يوحى إلى بأننى أحتضن طيفًا، وكان ثمة شعور يلازمنى وهو خوفى الشديد من أن أراها فجأة تنساب من بين أصابعى كحفنة من الرمال.

ولقد أثبتت التجربة صدق إحساسى هذا: فلقد تزوجت «مازا»، دون أن تخبرنى، من «كيجى كيامان» وذلك حتى قبل أن أعلم أنها تعرفه وأنه يعرفها.

وانقضى الخريف، وأقبل الشتاء. فتجمدت الشمس نفسها من شدة البرودة، وأصبحت الرياح محملة بكرات البَرَد. الشتاء يعتبر فصلاً قاسيًا بالنسبة للعاطلين. كنت أرفع ياقة معطفى البالى القديم وأهيم فى شوارع طوكيو الضيقة وأقتل الوقت، داخل الحانات القذرة، فى احتساء «الساكى» [1] الرخيص العطن.

كانت فى جيبى بعض «الينات» [2] التى حصلت عليها فى مقابل كمية من دمى. لقد غرزت الممرضة الأمريكية إبرتها فى ذراعى الهزيلة فسحبت منها ٢٥٠ سنتيمترًا مكعبًا من الدم، بدون اكتراث، وكأنها كانت تعد كوبًا من عصير الطماطم. ولقد كافحت الدوار بأن أحللت كمية من «الساكى» النفاذ محل الدم الذى فقدته.

(١) مشروب يابانى.

(٢) جمع «ين» العملة اليابانية.

ثم أمضيت، الليل هائمًا على هوى الطرقات، وها هى طوكيو التى أحالتها الحرب منذ سنوات إلى رماد، قد أصبحت الآن مدينة مهووسة تزينها أنوار النيون المتنوعة، وتعانى من كثافة السكان. إنها أشبه شيء بجحيم لم يتمكن فيه الرجال والنساء الذين يشبهون البهائم من مواصلة حياتهم إلا بعد كفاح مرير، وكنت أجد فى هذا الانحطاط نوعًا من السلوى، كما أشبعت غريزة الانتقام عن طريق بيع دمى. ولقد كان خلل عقلى يدفع جسدى نفسه إلى اليأس، فكنت أهيم فى حالة فراغ مادى ومعنوى فى الوقت نفسه.

وذات يوم توقفت إحدى السيارات بالقرب منى فجأة، وعندما التفت رأيت «مازا كورينو» تخرج منها، ولقد ظننت فى بادئ الأمر أن فقر الدم والدوار يمكران بى مرة أخرى، كانت «مازا» ترتدى معطفًا من الفرو أميل إلى القصر، وكان جسدها النحيل، تحت أنوار النيون التى كانت تضىء الشارع، يعكس ألوان قوس قزح، وراحت وهى تدس ذراعها تحت إبطى تطلق ضحكة رزينة.

- وأخيرًا عثرت عليك! منذ شهور وأنا أبحث عنك، لقد غيرت مكانك، على ما أظن.. كانت قد ضمنت صوتها نبرة ملاطفة، خفية بعض الشىء، جعلت الرعدة تسرى فى جسدى، ولقد تمنيت أن أهرب، فلم يكن فى العالم إنسان لا أرغب فى لقائه مثلها، وعندما تناولت يدى شعرت بعينى تفيضان بالدموع.

- كم أنت شاحب! هل أنت مريض؟ لماذا ترتعش هكذا؟

فأجبتها فى تهكم وازدراء:

- لقد بعت دمى، إن المسئولين فى المستشفى الأمريكى لا يشكون فى جودة السلعة التى تسيل منى فاشتروها بألف «ين». والآن فإن دمائى لابد وأنها تجرى فى عروق جندى أصيب فى كوريا.

فقالت «مازا كورينا»:

- هذا جميل! لقد كان فى جسدك دماء أكثر من اللازم، وإن عملية سحب الدم سيكون من شأنها أن تخفض الضغط عندك، ولن تموت بسبب ذلك. إننى مدعوة إلى حفل راقص ولست أرغب كثيرًا فى الذهاب إلى هناك.

فقلت لها:

- اذهبى بسرعة، فإننى أرغب فى البقاء بمفردى.

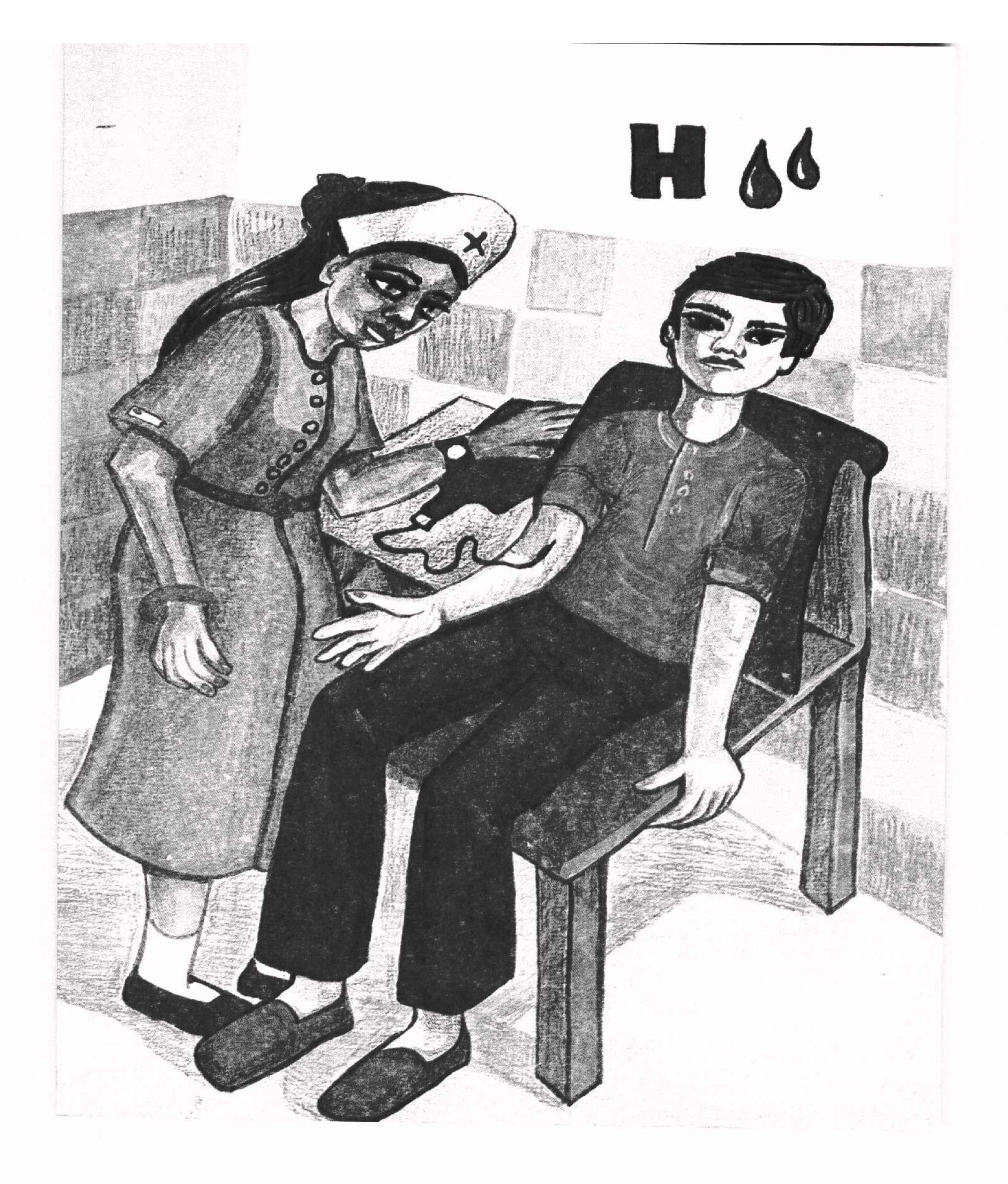
فهمهمت وهى تضغط على ذراعى:

- لا تقل لى ذلك، ستجعلنى أبكى.

لو كانت صادقة، فلماذا هجرتنى لكى تتزوج من «كيجى كياما»؟ ولكن المناقشة كانت ضربًا من العبث: كانت أشبه بالسائل، ليس لها شكل معين، لذلك فقد كانت تجيد التكيف مع الإطار والظروف، وكانت السعادة، بالنسبة لها، أمرًا يسيرًا.

ودخلنا أحد المطاعم وطلبنا كأسين من العصير وكنت وأنا أشرب، أنصت إلى «مازا» وهى تثرثر بصوتها العذب.

- أنت غاضب، أليس كذلك؟ ولكن ذلك كان خارجًا عن إرادتى، دعنى أشرح لك. إن «كياما» واحد من أصدقائك، وعلى ذلك، فأنت تعلم مكان عمله، إنه يعمل لحساب مخابرات جيش الاحتلال، ولقد كان له فى الماضى أصدقاء من حزب اليسار المنحرف، الذين يبغضونه فى الوقت الحاضر، ولكن هذا بالذات ما جعلنى أقرر الزواج منه، لأن لى ثأرا عند السوفييت، ففى نهاية الحرب قتل جنود الجيش


H

الأحمر أهلى فى منشوريا وأنا أريد الثأر . ولقد سافر «كياما» إلى موسكو أيام كان منضمًا للشيوعيين، وهو يتحدث الروسية بطلاقة، ولديه معلومات كثيرة، عما يجرى فى روسيا، ومن هنا كانت فائدته للمخابرات. ولنفس السبب أيضًا كنت على استعداد لعمل أى شىء من أجل «كياما» إن الأمريكيين - كما تعلم - هم الذين سيثأرون لى، هل فهمت؟

فأجبت:

- كلا، إن المرء لا يشيد بيتًا على مبادئ من هذا القبيل، هل تريدين أن تقولى إنه إذا ترك «كياما» المخابرات، فإنك ستنفصلين عنه؟

- بكل تأكيد.

فأخذت فى الضحك قائلاً:

- وحينئذ ماذا تصنعين؟

- أصبح زوجك، فأنت الشخص الذى أحبه، ألا تفهم؟؟ ألا تريد أن تصدقنى؟

من البديهى أن الزواج يجب أن يكون هدفًا فى حد ذاته، ولكن «مازا» كانت من تلكم النساء اللائى

يجتزن فى غير مشقة حدود الذوق العام، ويتجاهلن بمسلكهن القيود التى يفرضها الواجب والأخلاق والحياء. لقد كان يبدو لها زواجها من «كياما» وسيلة للثأر من روسيا، ولم تكن ترى فى نظرتها للأمور شيئًا يخالف الصواب أويشذ عن المألوف.

وبالإضافة إلى ذلك، وجدتنى عاجزًا عن توجيه اللوم إلى نزقها وعدم وفائها. لقد كانت وعودها وحججها أشبه فى تأثيرها بجرعة حبيبة، ففى تلك الليلة أصبحت جبانًا يرتضى أن ينتظر دوره عندما يتم انفصال «مازاكورينو». «أنت الشخص الذى أحبه»، «هكذا كانت تقول لى، وكان هذا يرد إلى الأمل، كان يكفى أن أنتظر: فمن المؤكد أنها ستعود لى.

ولكن مع مرور الزمن، دفعنى هذا الأمل نفسه إلى اليأس، فإننى لم أكف عن التفكير فى «مازا» ولقد فقدت فى هذا التفكير كرامتى، وثقتى بنفسى، والتحكم فى مشاعرى، فكنت أغلق نوافذ حجرتى المظلمة، الشبيهة بالزنزانة، وأقضى أيامى متمددًا فوق فراشى،و لا أدرى ماذا أصنع بجسدى المسكين، ولقد انتهى بى الأمر إلى اتخاذ قرار بعدم

رؤية «مـازا» بعـد ذلك، لأنهـا سـتكون سـبـبًا فى هلاكى، وحتى مع افتـراضى أنهـا ستـعـود لى، لم أكن واثقًا من قـدرتى على الاحتفـاظ بها، فـفى يوم ما، ستنساب من يدى مثل الماء.

فى تلك الأثناء جاءتنى «مازا» دون إخطار سابق: فهل كان ذلك من أجل سعادتى أم من أجل شقائى؟ كـانت ترتدى مـعطفًا رمـاديًا من مـعـاطف الربيع وتمسك بيدها باقة من القرنفل، وكان كتفاها يبدوان أكثر نحـولاً، وكانت ثمة تجـاويف تحت وجنتيـهـا، وكانت عيناها الواسعتان تتأملانى بنظرة ملهوفة.

فبادرت بسؤالها قائلاً:

- ماذا حدث؟ لقد هزلت.

فأكدت وفى صوتها ليونة ملاطفة أعرفها جيدًا:

- لم يحدث شىء.

- ولكنك تبدين مريضة.

- أنا لست مريضة، إننى حامل.

- صحيح؟ مبروك.

- متشكرة.

ـ آه... ولكن، متى تنوين أن تتركى «كياما»؟

فقالت وهى تشيح بوجهها:

ـ الأمل ضعيف فى تركه. فكما تعرف، إنه يحبنى، إنه يقول إنه يحبنى بجنون، وذات يوم، عندما حدثته فى موضوع انفصالنا، أمسكنى من نحرى، وهو يزعم أنه يفضل أن يقتلنى على أن يفقدنى، وأنا لا أحب أن أموت. والآن، ماذا تريد منى أن أصنع؟

عندئذ فهمت، لقد غرر بى، فلم تكن «مازا» تنوى صراحة أن تهجر زوجها ولم يمنعها هذا من أن تأتينى فى حجرتى لتستثيرنى وتحاول أن تعكر حياتى، فقد كانت تجد فى هذا العمل نوعًا من اللذة، كانت لعبة قاسية، وحدثت نفسى قائلاً: «إن اليأس سينقذنى» وكشخص يدمن المورفين ويتمسك مستميتًا بالجرعة ولا يعود إلى صوابه إلا إذا وجد نفسه محرومًا منها، رأيت أننى لن أعود إلى صوابى إلا بعد أن أفقد «مازا».

فقلت:

ـ إننى أرى أنه لم يعد لدى ما أقوله لك، وابتداء من الآن، فإننى سأبتعد عنك. حاولى يا«مازا» أن

تكونى أمًّا صالحة وكرسى بقية أيامك لزوجك «كياما».

فقالت وهى تبتسم:

- أوه! كلا، لن أصبح أمًّا صالحة، فغدًا سأدخل أحد المستشفيات حيث أقضى أسبوعًا، وسينتهى كل شىء.

وانفصلت عن «مازا كورينو». إن جسدها الغض الساحر، وصوتها الضعيف الرخيم، ومائعية شخصيتها بأسرها، كل ذلك لم يعد يشقينى، فقد استعدت طاقتى، وزرت أصدقائى لكى أطلب إليهم أن يجدوا لى عملاً، فوجدت مكانًا عند مهندس معمارى. وكنت أقضى نهارى أمام لوحة الرسم فى تنفيذ تصميمات عمارة كبيرة، وكانت طوكيو، تبعث من رمادها، وكان سكانها يزدادون كل عام بمقدار أربعمائة وخمسين ألف نسمة. كانت المدينة فى حاجة إلى أرض ومنازل، فكان لابد من تشييد عمارات كثيرة الطوابق لإقامة سكانها الذين لا يكفون عن الزيادة.

وأقبل الصيف، ثم أعقبه الخريف، وكنت لا أزال أواصل عملى فى التصميمات، دون أن أهتم بشىء

آخر، وكنت قد استعدت استقلالى آخر الأمر، وكنت أجهل ما كانت تعمله «مازا كورينو». بل لم أكن أعلم أين كانت تقيم، وكانت حياتى تسير نحو الاستقرار وكنت أحدث نفسى قائلاً: فى العام القادم، سأتزوج من فتاة عاقلة، وسأقوم بتشييد بيت صغير لنا».

وذات يوم، تلقيت مكالمة هاتفية فى مكتبى، فانقبض قلبى عندما تعرفت الصوت الذى كان يهتف باسمى: كان صوت شيطان. فإن شكسبير يقول: «إن الشيطان عندما يريد أن يغوى إنسانا فإنه يتخذ صورة ملاك». كان الصوت الذى أتانى فى الهاتف وجعل قلبى يقفز صوتًا رقيقًا عذبًا كصوت الملاك، كان هذا الصوت صوت «مازا كورينو»..

- أنت لطيف هذه الأيام، أنا أعرف ذلك، إننا لم نلتق منذ زمن طويل، ولكنك لم تفارق عينى، سرعان ما سأترك «كياما»! هذا صحيح، وسأصبح زوجتك، كيف؟.. نعم «كياما» يحبنى ولكنك أنت الشخص الذى أحبه، لماذا لا تريد أن تصدقنى؟.. لابد أن أراك فى ظرف عدة أيام.

- ولكن أنا لا أريد أن أراك.

- أنت مجنون؟... إلى اللقاء يا حبيبى!

واستولت عليّ «مازا» من جديد، ولم يعد باستطاعتى أن أفلت، منها ففى النهار كانت تسيطر على أفكارى، وكنت أحلم بها فى الليل - وفى غمرة يأسى هذا، بدأت أشرب الساكى، وأنام فوق أحد مقاعد الحديقة، وفقدت سيطرتى على نفسى تمامًا، فغرقت فى حالة من الفجور والفسق دامت عشرة أيام، وفى هذه النكسة الأخيرة أضعت تصميم العمارة، ففقدت عملى.

ولما كنت عاجزًا عن الحصول على عمل آخر، فقد شعرت باقتراب الشتاء، وعلى ذلك فقد عدت إلى المستشفى الأمريكى، وبعت قليلاً من دمى واستبدلت بالنقود التى أعطونى إياها مشروب، «الساكى». وكان يلوح لى أننى لا أملك سوى وسيلة واحدة للإفلات من «مازا» وهى أن أفقد نفسى كلية، وأن أنحدر من مستوى الإنسان إلى مستوى الحيوان، ولكن الواقع هو أن العذاب الذى كنت أعانيه لم يكن سوى امتداد للتأثير الخفى القوى الذى كانت تمارسه عليّ هذه المرأة.

وترديت فى هذا الحضيض أكثر فأكثر، وأصابنى البرد وبدأت أعانى من صداع عنيف فى



رأسى. وذات أمسية باردة، كنت متمددًا وأنا جائع محموم، فوق فراشى الحقير أنصت إلى مطر الشارع البارد، وإذا بمن يطرق الباب طرقًا رقيقًا.

ودخلت «مازا» وكانت متدثرة فى معطفها الفرو وتحمل حقيبة من الورق مليئة بالفاكهة، وأما وجهها النضير الذى اعتنت بزينته فكان يبتسم ويهش للقائى.

ودون أن أنبث بكلمة، أخذتها بين ذراعى على صدرى، لقد حصرتها مثل البهيمة، عازما هذه المرة، ألا أتركها، حتى ولو كان ذلك مقابل إنقاذ روحى، ولكن «مازا» لم تكن من تلكم الفتيات اللائى يثرن بسهولة، لقد كانت لا تزال غضة رقيقة عنيدة، وعلى الرغم من عناقى واندفاعى فقد كانت تحتفظ بابتسامتها وسيطرتها على مشاعرها.

وهمهمت قائلة:

- انتظر، انتظر قليلاً، أرجوك. انتظر حتى بعد الغد.

- وماذا سيحدث لو انتظرت إلى ذلك الحين؟

- سأصبح زوجتك.

- ولماذا بعد الغد؟

ـ هناك احتمالات لأن يحدث شىء هام غداً. هذا صحيح. ومن الأفضل أن نظل اليوم فى هدوء. سأقابلك بعد غد فى مكان ما، اتفقنا؟

ولكننى لم أكن أنصت إليها، كنت أسمع المطر البارد الذى كان يتساقط فى الخارج بينما كنت أحتفظ بـ «مازا» بين ذراعى، فى حجرتى الصغيرة المظلمة، ونسيت كرامتى، واعتدادى بنفسى، نسيت كل شىء.

وفى اليوم التالى، كانت جريدة المساء تدخر لى مفاجأة. فقد ألقى القبض على «كيجى كياما» بواسطة البوليس الحربى لقوات الحلفاء بتهمة التجسس، فبينما كان يعمل فى المخابرات الغربية، قام بتوصيل أسرار قوات الاحتلال الأمريكية إلى السوفييت. أمّا اسم «مازا» فلم يأت ذكره، لكننى شعرت بأنهم قبضوا عليها هى الأخرى.

ومع كل ففى المساء الذى حدد موعداً للقائنا، وجدت «مازا» تنتظرنى داخل المطعم الذى كان من المفروض أن نلتقى فيه، وفى تلك الحجرة الحافلة بالأنوار كانت تبدو سعيدة.

فبادرتها قائلاً:

- ما هذه الأخبار؟!

فسألتنى وهى تضحك من كل قلبها:

- هل فوجئت بذلك؟

فأردفت قائلاً:

- إذن، فقد كنت على علم بذلك أول أمس؟

- طبعًا، ما دمت أنا التى فعلت ذلك.

- ماذا تقصدين؟

- سأشرح لك. عندما قتل الجيش الأحمر أهلى فى منشوريا، عدت إلى هنا، بمفردى وعشت ستة شهور مع عمى، وقد كان عمى هذا رئيسًا لإحدى فرق شرطة العاصمة حتى هذه الأيام الأخيرة.

- تقصدين أنه طلب منك أن...

- دعنى أتكلم إذن!

هكذا قاطعتنى فى رقة.

- قبل الحرب، كان «كياما» شيوعيًا، كما تعرف، لهذا السبب كان مكتب الأمن التابع لقوات الحلفاء يشك فى أمره، فطلب الحلفاء من شرطة العاصمة

أن تقوم بالتحريات فى هذا الشأن، ولكن التحريات تمت بعناية، وفى سرية تامة، فلم يشك هو فى ذلك.

وذات يوم، عرفنى عمى على ضابط يعمل فى المخابرات، ودعانى هذا لحضور حفل صغير فى بيته... وهناك قابلت «كياما» وبالطبع كانت مقابلتنا قد أعدت مقدمًا، فبالنسبة لى كان كشف أحد الجواسيس السوفييت، وسيلة لجعل الروس يدفعون ثمن موت أهلى، فقبلت المهمة التى كلفونى بها، وكان «كياما» سهل القياد وكان يجهل كل شىء عما يحاك حوله، ولم يشك فى أمرى على الإطلاق، وقبل أن ينقضى شهر على مقابلتنا الأولى، طلب أن يتزوجنى، ولكنه حتى ذلك الحين لم يعهد إلىّ بسره.

- ولكنك فى النهاية تمكنت من كشفه، أليس كذلك؟

- لقد كلفنى هذا الأمر عامًا كاملاً، ولكنه حتى النهاية، ظل يجهل كل شىء عن الدور الذى قمت به فى هذا الموضوع، ففى صباح الأمس، فى الوقت الذى كانوا سيهمون بأخذه، التفت ناحيتى وهو بادى الحزن وقال لى: «إننى حزين، يا مازا»

سامحينى، يجب أن تنسينى وأن تعيشى كما يحلو لك»، كنت مبتئسة من أجله ولكنى لم أقل شيئًا، فقد رأيت أن من الأفضل ألا يعلم شيئًا... والآن، لقد أوفيت بعهدى، أليس كذلك؟ فسنتزوج، هذه المرة؟

فوضعت فى هدوء فنجان الشاى الذى كان بيدى فوق المائدة. إن المشكلات العالمية والصراع بين روسيا والولايات المتحدة الأمريكية قد جعل من هذه الفتاة شيطانًا، ونهضت من فوق الكرسى، إننى لوغفرت لها، لما أصبح هناك إيمان ممكن بالعواطف الإنسانية، إذن لفقدت إيمانى بالحب والصراحة إلى الأبد، فألقيت بها أرضًا فصاحت، وبدأ الناس من حولنا يتركون موائدهم، وبعد لحظة وصلت الشرطة وألقى القبض علىّ.

ها أنذا قد نجوت الآن، وعندما قادنى رجال الشرطة لم أشعر بضميرى يؤنبنى على الإطلاق.

الجسر المعلق

من فيتنام

تأليف: توى آن هوانج دان

كانت طلقات النيران قد اقتربت من جميع الجهات.. وفجأة، اقترنت بها انفجارات عنيفة تصم الآذان، لا يعلم مصدرها إلا الله، أما سكان القرية الذين لم يرحلوا بعد، فلم يجدوا وقتًا للتفكير أو الجدال.. فسرعان ما أصبح صخب فرارهم الجنونى يتردد فى جميع الطرق المفضية إلى خارج القرية الصغيرة، والرعب والكرب يضاعفان صراخهم: «لقد أصبحنا فى قلب النار.. لقد زحفت إلينا الجبهة»، واندفع بعض الذين سمعوا آخر الأنباء - عند مدخل القرية - يسرعون إلى بيوتهم، ليحملوا منها كل ما تصل إليه أيديهم.

وبقى بعض منهم فى المؤخرة، ليساعدوا المسنين، وليحملوا الأطفال.. وكدست النساء فوق ظهورهن

ما كانت تضمه بيوتهن الفقيرة من أمتعة، بينما حمل الرجال على أكتافهم أدوات الزراعة وآلاتها.. وراح الجميع يتدافعون فى عجلة - فرارًا من القرية المهددة، دون أن تكون لدى واحد منهم فكرة محددة عن الوجهة التى يقصدها.. فكانوا ينضمون - بلا وعى أو إرادة - لأكثر الجماعات الهاربة عددًا، دون أن يعطوا لأنفسهم فرصة ليسألوا: من أى نواحى الجبهة ينبعث ضجيج المعركة؟.. وإلى أية مسافة من القرية وصل المحاربون؟.. كان كل همهم أن ينطلقوا فى فرارهم مسرعين، حاملين، أبناءهم وزادهم وأمتعتهم.

وبدا أن الطلقات كانت تنبعث من كل ناحية، وفى وقت واحد، تصحبها جلبة وسائل النقل التى كانت تتناهى إلى أسماع القرويين، فكانوا يحسون بها - أكثر مما كانوا يسمعونها - إذ كانت تزلزل الأرض تحت أقدامهم.. وفى تدافعهم واضطرابهم، كان بعضهم يسقط فوق البعض الآخر، وكان الأزواج يفترقون عن زوجاتهم، والأمهات ينفصلن عن أولادهن... فتتصاعد النداءات الملتاعة الملهوفة.. وكلما قطعوا شوطًا، انضم إليهم فريق جديد، يضاعف ذعرهم بما يحمل من أنباء:

- لقد بلغوا الجسر.. لديهم مصفحات.. إنهم يطلقون النار على القرية.

وتأكيداً لهذا الخبر الأخير، مرقت فوق رؤوس النازحين - وهم مصطفون على ضفة النهر - مجموعات من القنابل القاصفة، فانبطحوا جميعاً على الأرض، وأطلقت النسوة عاصفة من الصراخ والعويل:

- لقد أحاطوا بنا!... لقد حوصرنا!.. يجب أن نعبر النهر، فهذه هى فرصتنا الوحيدة للنجاة.

وفى حركة واحدة، اندفع المهاجرون نحو حافة النهر، وقد تركوا مناجلهم وأدواتهم وما كان يضايقهم حمله من حزم.. والكهول منهم يئنون، والأطفال يبكون. ودوت من إحدى النساء صرخة ملتاعة، فارتفع صوت رجل يقول: «أغلقن أفواهكن أيتها النسوة!.. إنهم إذا سمعونا فسيقصفوننا بالقنابل، فيمزقوننا إربا إربا». وإزاء هذا التحذير كتم الكهول أناتهم، وأخذت الأمهات يسكتن أبناءهن ويلصقن راحاتهن بأفواههم.

وعلى طريق الجسر، أخذت ضوضاء المصفحات تدنو مختلطة بطلقات الرصاص، تعزف موسيقى



الموت.. واستمر الضجيج الرهيب فى الاقتراب والارتفاع.

ولكن الذين بلغوا ضفة النهر - أسفل طريق الجسر - لم يلبثوا أن هدءوا وكأنهم أيقنوا أنهم بلغوا - فى النهاية - مأوى آمنًا.. وعادوا يلتقطون أدواتهم وأمتعتهم التى كانوا قد ألقوها أرضًا.. وأسرع الأقوياء من الرجال إلى قواربهم المستديرة - الشبيهة بالسلال - فشرعوا ينقلون الهاربين، ويجدّفون بكل ما أتاهم الله من قوة.

وفى لحظة وجيزة، كانت القوارب قد غصّت بالشيوخ والنسوة اللاتى حملن أطفالهن على أكتافهن... أما الشبان، فاندفعوا إلى الماء، يعبرون النهر سباحة، وأُفرد القارب الأخير للأمتعة التى لم يلتقطها أصحابها.. وحين أصبحت القوارب فى عرض النهر - وهى تتمايل باضطراب ينذر بالخطر - أخذ العابرون يرتجفون خوفًا، إذ فطنوا إلى أنهم أصبحوا فى منطقة مكشوفة، مما يجعلهم هدفًا سهلاً للقنابل.. ولم يجرؤ أحد على الالتفات نحو القرية الصغيرة أو الشاطئ الذى وقف عنده من لم تتسع لهم القوارب، وينتظرون دورهم فى العبور،

وهم نهب للرعب خشية أن يصيبهم العدو، قبل أن تعود إليهم القوارب.. ولكن المجدفين راحوا يجدفون فى استبسال مستميت، فعادت القوارب مرات.. وعندما تمت آخر رحلة عبر النهر، وتم نقل جميع الأمتعة إلى الضفة الأخرى، استرد الهاربون هدوءهم، وانبطحوا على الأرض، يرسلون أبصارهم نحو القرية التى هجروها إلى غير عودة.

* * *

كانت سماء القرية تتوارى فى سحب من دخان أسود تمزقه من حين لآخر ألسنة اللهب . وأخذت أعمدة الدخان وألسنة اللهب تتماوج وتتلوى كالأفاعى المذعورة... وامتدت الحرائق من أحد أطراف القرية، حتى بلغت المبانى الرئيسية فيها، ثم تشعبت فانتشرت فى كافة الأنحاء واجتاح الدخان كل شىء.. وحملت الرياح الرماد إلى ضفة النهر، ثم عادت به إلى الضفة الأخرى لتصفع به وجوه الهاربين الذين التصقوا بالأرض فى ألم وذهول، وقد سمرتهم إليها فجائية الأحداث والدمار.

ومسح أحد الرجال وجهه الذى كساه الرماد، ثم أخذ يصرخ، وهو يحدق فى يده: «انظروا.. ثمار كل

تلك السنين من الجهد والعناء، تتلاشى فى الدخان.. أهذا مصير العمل الدائب والحرمان؟ يا إلهى!!

وسمع كل امرئ هذه الحسرة، فكأنما كانت إشارة بدء، إذ أخذت الدموع تسيل من العيون... وأفلتت من الرجال زفرات أسى.

ولكن أحد المبرزين فى القرية، صاح بصوت قوى: «إن المصيبة مصيبة الوطن بأسره، فلا تعتقدوا أن منازلكم وقريتكم وحدها هى التى أصابتها النيران».

وبينما هو يتكلم، صرخ أحد الموجودين: «انظروا هناك، رجل على الشاطئ... ومعه ثور».

واتجهت الأبصار جميعًا إلى الضفة المقابلة... كان هناك رجل حقًا، لاح خلال الدخان وهو يقود ثورًا، ويسير فى خط متعرج، كأنه كان يحاول تفادى الضربات التى كان يوجهها إليه خصم متوارٍ عن الأنظار.

وعرف القرويون الرجل.. إنه «ترونج به» وثوره... وراحوا ينادونه، ويحيطون أفواههم براحاتهم، حتى

تتضخم أصواتهم وتبلغ الشاطئ الآخر للنهر، ولكن.. أكان من الممكن أن يسمع نداءاتهم وسط ضجيج القنابل والمفرقعات والمصفحات وطقطقة الأخشاب وأعواد الغاب المشتعلة؟

ولوح «ترونج به» بيده، ثم شد الحبل ليقود الثور إلى منحدر يفضى إلى حافة النهر، ولكنه ما لبث أن غير اتجاهه فجأة، ولاح أنه أراد أن يحتمى خلف جسم الحيوان. وفجأة، أنزل يديه وألصقها ببطنه، بينما انتفض الثور جامحًا، وأفلت، وانطلق مترنحًا، وكأنه أصيب هو الآخر.. وأيقظ هذا المشهد الذعر بين القرويين من جديد، وأيقنوا أن الخطر يلاحقهم، فانطلقوا يجرون على غير هدى، مندفعين نحو مزارع الأرز التى جفت لطول ما هجرها أصحابها.

* * *

من خلال أحراش الغاب، تراءت - أخيرًا - منازل سمراء وحمراء.. تلك كانت طلائع منازل قرية «نكون» وقد بدت بمتانة بنيانها بمثابة ميناء أو مرفأ يلوذون به من الموت الذى كان يلاحقهم من ضفة النهر الأخرى.

وأخذوا يركضون إلى «نكون» بأقصى ما وسعهم من سرعة، وقد تقطعت أنفاسهم، وتصبب عرقهم انصبابًا.. وكان القادرون يأخذون بأيدى المسنين، ويجرّون وراءهم الأطفال.. ولكنهم، وبعد أن عبروا نحو اثنتى عشرة مزرعة، فوجئوا بجماعة أخرى من الهاربين تبرز من أحد الأدغال إلى يمينهم.

وخيل إليهم أنهم ينظرون إلى صورتهم فى مرآة: كان الآخرون مثلهم، جمهرة من الناس مثقلين بالأدوات والحزم، يفرون والموت فى أعقابهم.. فمن الجانب الآخر للدغل، كان ثمة خط من النيران، تنطلق من ورائه القنابل كثيفة مركزة. وصاح شخص ما: «إنها عملية تطويق، فهم على جانبى النهر.. كيف السبيل إلى النجاة»؟

وأدرك الفارون أنهم وقعوا بين نارين، بعد أن ظنوا أنهم قد بلغوا ملجأ أمينًا، فى قرية منعزلة عن المعركة.

كيف السبيل إلى النجاة؟

وتجمدوا فى أماكنهم، لا يدرون إلى أين يذهبون... وأخذت حلقة النيران تضيق من حولهم فى كل لحظة.. وازداد ارتفاع قصف المدافع، وهى تقترب من ناحية «نكون».

وانبعثت من الفريق الآخر من الفارين صيحات التحذير:

- اتبعونا، فنحن على دراية بكل الطرق..! إننا نيمم شطر (يين دا)، لنختبئ فى الجبال. وعادوا إلى الجرى، يحاولون اللحاق بالجماعة الثانية.

* * *

أخذت حدة الشمس تخف فوق مزارع الأرز، وهدأت حرارة الجو،، ولم يجرؤ أحدٌ من القرويين على التوقف، بالرغم مما أصابهم من إرهاق، بل إن أحدًا لم يعد يحفل بأنين الشيوخ وعويل النسوة والأطفال.. واستمر الجميع فى هرولتهم خلال السهل المقفر، المترامى.. وزاد الطين بلة، أن أخذت السحب المنخفضة تتكاثف ثم تساقط المطر مصحوبًا ببرد قارس... ولكن، ماذا يهم المطر والبَرَد؟.. لم يكن القوم يفكرون إلا فيما بقى من مسافة بينهم وبين الملاذ الآمن.

ولما كان القادمون من «نجين» يجهلون موقع «يين دا»، فقد كانوا يسألون العارفين، فيجيبونهم:

- لا تزال المسافة بعيدة.. هناك جسر معلق فى الفضاء، فوق مجرى مائى عندما تجتازونه، تكونون قد وصلتم إلى مقاطعة «يين دا».

وما لبث الجسر الصغير أن لاح - خلال ستار المطر وضباب المساء - وكأنه يطفو فى الهواء، وعوارضه الرقيقة، المصنوعة من الغاب، تتأرجح وسط الرياح بشدة تنذر بالخطر.. والليل يهبط مسرعًا، والسماء محجوبة بسحب سوداء كثيفة، ينعكس عليها وهج النيران فكأنما السماء وحش خرافى مرعب، ينبعث منه دخان ولهب.

* * *

وازدادت معالم الجسر وضوحًا، فابتسم بعض الهاربين، وقد أخذت الطمأنينة تخالجهم. كان قصف القنابل لا يزال مركزًا، ولكنهم شعروا بأنهم تجاوزوا نطاق الخطر... وراح بعض المسنين يلهجون بالدعاء، وعيونهم معلقة بالجسر المتاخم للحدود.

على أن الحيرة عاودت القوم، عندما بلغوا الجسر المعلق.. لم يكن مجرى الماء واسعًا ولكنه كان بالغ العمق.. وكان التيار سريعًا وقويًا، والمسافة بين أسفل الجسر وسطح الماء لا تجاوز الشبر، ولم يثر بنيان الجسر عجب أحد، كان مكونًا من سيقان من الغاب طويلة بعرض المجرى مربوطة من الطرفين ومرتكزة فوق مجموعات أخرى من الغاب، كل وحدة تتألف من ساقين على شكل

صليب، غرست فى المياه لتكون دعامات.. وكان ثمة سياج من الغاب المضغوط على جانبى الجسر، ليتكئ عليه العابرون، وفى غمرة القلق، انبعثت نصائح الفارين وتساؤلاتهم.

ـ والآن... ألم يبق إلا أن نجتاز الجسر؟

ـ بلى. هذا أمر يسير على الشبان.. ولكن... النساء والشيوخ والأطفال؟... وكيف تنقل الأمتعة فوق الجسر؟

وسأل أعيان القرية زملاءهم من قرية (نكون):

ـ أما من طريق آخر لعبور النهر؟.. ليس بوسعنا أن نظل هنا جميعًا، فى انتظار أن يعبر القوم النهر واحدًا واحدًا، فوق هذ الجسر الضعيف .

وفجأة، وقع انفجار رهيب وراء القوم، على مسافة مائة متر تقريبًا، فقطع الحوار ونثر الوحل فوق رؤوس الهاربين، وتوالت الانفجارات.. ولعل المدافع كانت تطلق قنابلها جزافًا من الشاطئ الآخر، ولكن الهاربين ظنوا أن العدو يصوب قذائفه عليهم، فاستبد بهم الذعر، وعلا صراخهم، وغاص بعضهم فى الماء يحاولون اجتياز المجرى سباحة، وتدافع البعض الآخر نحو الجسر، فأخذ يهتز بعنف تحت ثقلهم...

وبقيت قلة ضئيلة احتفظ أفرادها برباطة جأشهم، وراحوا يحاولون إقرار قسط من النظام، ويرفعون أصواتهم وسط الصخب والضجيج: «اعبروا الجسر فرادى.. واحدًا واحدًا، ولا تثقلوه، وإلا غرقتم جميعًا».

هذه التحذيرات كانت ستذهب دون تأثير، لو أن مجموعة أخرى من القنابل تبعت الأولى.. ولكن القنابل انقطعت.. غير أن الجسر كان مبعث خطر لا يقل عن خطر المقذوفات، إذ أخذ يهتز بشدة تحت الخطوات الملهوفة، وكأنه وشيك الانهيار، وما كان انهياره فى المياه السريعة الجريان - ليثير دهشة أو عجبًا مع التزاحم والاضطراب.

وبعد أن عبر الجسر عدد من الأفراد، تقدمت إليه عجوز تحمل على كتفها عصا طويلة من الخشب، علقت فى طرفيها سلتين، وكان الليل قد لف المكان، فلم ير الرجل - الذى كان خلف العجوز - شيئًا من محتويات السلتين، وقال للمرأة:

- ألق بهذا فى النهر!.. ستكونين سعيدة الحظ لو استطعت العبور وحدك دون أن تثقلى الجسر بالسلتين.



وتشبثت المرأة بالسلتين فى إصرار، وقد رابها قول الرجل الذى لم تكن تعرفه، وكأنما أثاره إصرارها فهز السلتين بخشونة، وإذا بصراخ طفل ينبعث من إحداهما، فصاح الرجل: ماذا تحملين فيهما؟.

ورأى المحيطون بهما طفلاً - فى حوالى الثالثة أو الرابعة من عمره - قابعًا فى إحدى السلتين.. بينما استغرق فى النوم - فى السلة الثانية - وليد صغير.

- يا ألله!... كيف تريدين عبور الجسر بهذين الولدين؟

وأجابته السيدة فى جفاء:

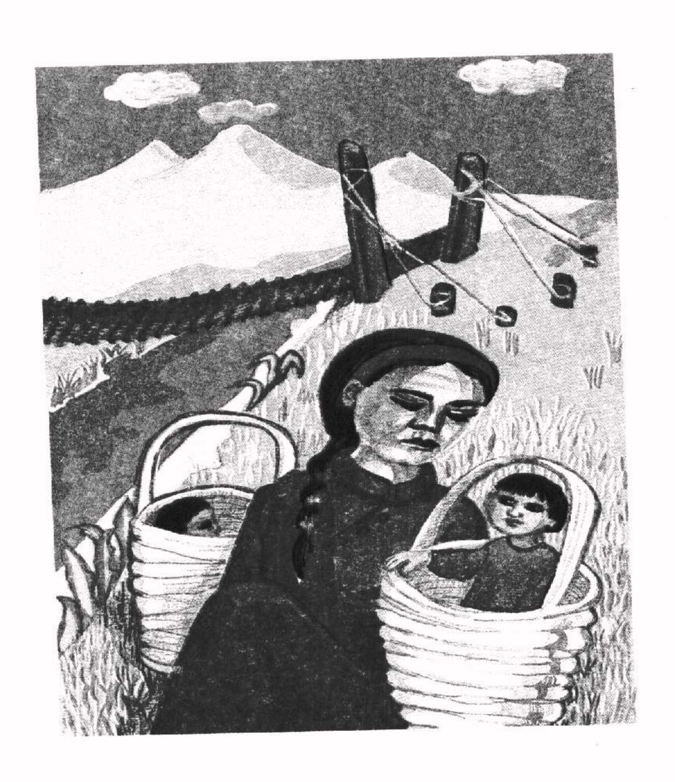
- سأفعل... لقد عبرت - من قبل - جسورًا أسوأ حالاً، بأحمال أثقل».

وأخذ القوم يرقبون المرأة، بانفعال بالغ وهى تتقدم ببطء فوق أعواد الغاب تحت ستار المطر الدقيق، الذى تخلله ضوء القمر الشاحب .. كانت محاولتها ضربًا من المجازفة.. وقال بعض الحاضرين لأنفسهم، وهم يقدرون الاحتمالات: إن نجاحها فى بلوغ الشاطئ الآخر بسلام - لو

استطاعت - فأل حسن يبشر المهاجرين بأنهم سيبلغون قرية «يين دا» دون خطر.

ولكن القنابل عادت تستأنف قصفها فجأة، وقد ازدادت قربًا .. وقبل أن يجد أحد فرصة للانبطاح فوق الأرض، انفجرت قنبلة وسط الجموع المتزاحمة أمام الجسر، وفى غمرة الاضطراب الجنونى، أخذ الكثيرون يلقون بأنفسهم فى مجرى الماء، بينما تدافعت أعداد كثيرة نحو الجسر.

والتفتت السيدة بعد أن بلغت منتصف الجسر، وقد شل الذعر حركتها، وتشبثت بكل قوتها بسور الجسر الذى بدأ يتأرجح فى عنف بسبب تدافع الفارين، وفجأة مالت إحدى السلتين ميلاً شديدًا، فاختل توازن العصا فوق كتفى السيدة فسقطت مع السلتين فى الماء وضاع صراخ الأم وعويلها وسط ضجيج الناس وقصف القنابل.



الهرب

(من اليابان)

الكاتب اليابانى : تاكيس هارتزيانو نيوستو

كنا قد عبرنا النهر، ومع ذلك فقد كانت صغيرتنا «روزى» تواصل البكاء، كنا نواصل السير منذ ساعات، وقدماها الداميتان تتركان آثارًا محمرة فوق حجارة الطريق حيث كان من الممكن أن نرى، بعد مرورها علامات غريبة، كان قلبى ينقبض لها. إن جميع المحن التى عرفناها منذ قليل: هربنا فى الليل القارص، والرياح والمطر الذى كان يهدد بالهطول ومياه النهر المتجمدة، والجوع الذى أصبحنا نشعر به، كل ذلك لم يكن يعدو شيئًا بالنسبة لدموع شقيقتنا الصغيرة «روزى».

لم يكن والدنا يقول شيئًا، وكان يسير محنى الظهر، وكانت «أورور» شقيقتنا الكبرى تضغط على أسنانها وتتقدم دون شكوى أو أنين.

لم يكن أحدهما يلقى نظرة إلى الوراء، ومهما بكت «روزى» فقد كانا لا يريانها، كنا نسير بسرعة عظيمة، كما لو كان هناك أشخاص يطاردوننا، ولقد تمنيت لو ناديت «أورور» ووالدى، وأجبرتهما على الالتفات، وعرضت عليهما الدموع التى كانت تسيل فوق خدى «روزى» والحجارة الملطخة بالدماء. تمنيت لو سألتهما عن السبب الذى دفعنا إلى الفرار من قريتنا، ولماذا تركنا شجرتنا الكبيرة، شجرة الدلب، للوحدة واليأس - شجرتنا العزيزة التى كانت تلعب فوقها طيور القرية بأسرها - ولكننى كنت أشعر بإرهاق شديد بحيث لم أكن أقوى على توجيه الأسئلة، وكانت قدماى ثقيلتين.

فجأة، إذا بصورة أمى تمثل أمامى «حقًا، إن أمنا ليست معنا» راودتنى هذه الفكرة وقد جف حلقى، كان والدنا و«أورور» ينظران أمامهما فى إصرار ولكننى كنت أعلم جيدًا أنهما لا يفكران إلا فى ذلك: أمنا، أمنا ليست معنا، وعادت بى الذاكرة فجأة، فرأيتها، هناك قرب النار المطفأة، راقدة فوق البلاط ومقبض الخنجر يخرج من صدرها.

وعشت مرة أخرى كل تفاصيل تلك الليلة الرهيبة: النيران كانت تدمر قريتنا، فتحيل كل شيء إلى رماد، وألسنة اللهب التى كانت شديدة النهم وهى تلقى الجدران، والنوافذ ، والأشجار - أشجارنا. والصراخ الفظيع الذى يدوى فى الشوارع، والدماء الغزيرة التى كانت تلطخ الحجارة، والناس الذين كانوا يهرولون من هنا ومن هناك وهم يصطدمون بشدة بالأبواب، والصراخ. فأسرعت أمنا إلى رأس سريرنا، وأخذتنا بين ذراعيها، ولقد دهشت لأننى لم أر «أورور» ولا والدى الذى كان مريضاً منذ عدة أيام، كانت الظلمات، وأنفاس أمنا الفاترة تلفنا فى طياتها.

وإذا بأختى الصغيرة تسأل قائلة:

- لماذا بابا و «أورور» ليسا معنا؟

- فأجابتها أمنا بسرعة: لأنهما لا يريدان أن يقعا فى أيديهم.

كانت تتحدث بصوت خفيض خشية أن يسمعها أحد.

- فسألت: «روزى» مرة أخرى:

- يقعان فى أيديهم؟ ولكن عمن تتحدثين؟

فعضت الأم على شفتيها، وهى لاتدرى بماذا تجيب، كانت عيناها تلمعان، كما لو كانت تريدان أن تخترقا الجدار لتهربا معنا.

فجأة، إذا بالباب ينفتح فى دفعة واحدة، وشبح مخيف يمثل عند العتبة فيقفز قلبى من الرعب، وساد الحجرة برد قارص.

- أين زوجك؟

كانت عيناى مثبتتين على أمى، لم تنطق بكلمة واحدة.

- فاستطرد الشبح المرعب قائلاً.

حسن ترفضين الإجابة؟

فتجمدت الدماء فى عروقى.

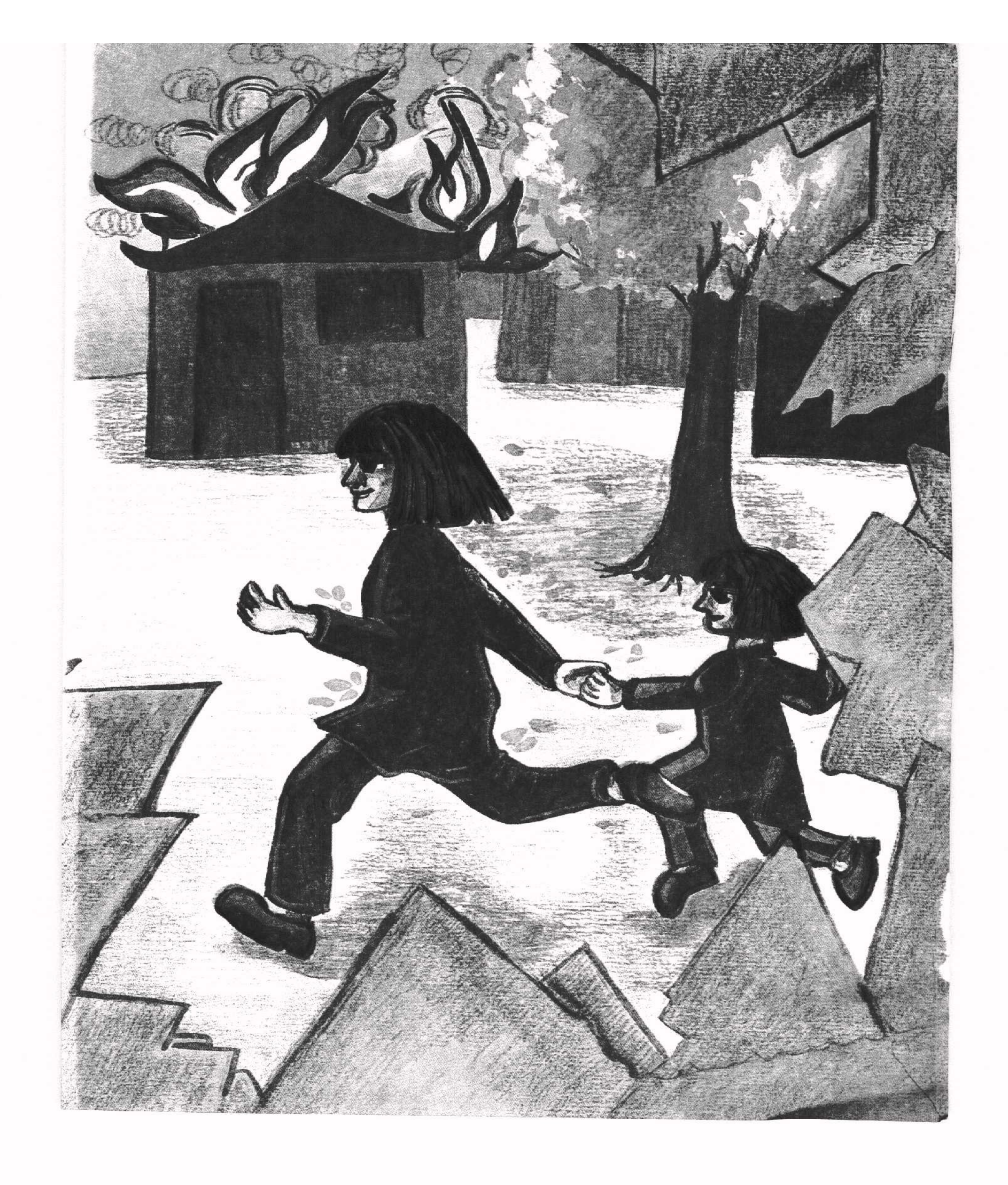
وأخفيت جبينى فى صدر أمى، كم كان الجو فيه لطيفًا وفاترًا! ولكن هذه المهلة لم تستمر، فإذا بيد من حديد تنتزعنا، أختى وأنا، من أكتافنا، وتدفعنا إلى ركن من أركان الحجرة، ولمع نور مصباح وسط ظلمة الليل، وغاص الخنجر حتى قبضته فى صدر أمنا الحبيبة. فتدفقت منه الدماء الغالية وإذا بعينيها - عينيها اللتين كانتا ملاذنا - تغمضان إلى الأبد، ثم

التهمت النيران كل شيء وانطلقت تزمجر من النوافذ، كنت أظن أننى أعانى من كابوس وكانت ألسنة اللهب تتراقص أمامنا كالمجنونات كانت تشبه مخلوقات جهنمية، تفتح أفواهها على سعتها لكى تبتلعنا، فكنا نرتعد من الخوف ولم يكن هناك أحد لينقذها، فقد كنا وحدنا مع أمنا التى كانت ترقد بلا حراك فوق البلاط، وكانت ألسنة اللهب تداعب جثتها، التى كانت الدماء تلمع فوقها بطريقة غريبة.

حينئذ انفجرت «روزى» فى البكاء، وتذكرت الوقت الذى كنت أتركها فيه وحدها وسط الغاب، وهى التى كانت تخاف كثيرًا من الأفاعى.

ورحت، وقد تملكنى الخوف، أجذب أختى من يدها، وأجتاز الباب وأنا أعدو، كانت ألسنة النيران تضىء الشارع وكأننا فى وضح النهار، وكانت الدماء تسيل، وكان الأنين والصراخ والرعب يتدفقان من كل مكان ومن أى مكان، كنا نختار مناطق مظلمة، ومن جديد كانت ألسنة النيران تقفز فى كل مكان تذهب إليه، وكنت أنادى بأعلى عقيرتى:

- أورور! أورور!



كانت «روزى» تبكى من الذعر، ولكن ما من أحد كان يستطيع أن يسمعنا، وكان ثمة مجرى يسيل من الطريق إلى الميـدان، هل كـان من الماء أم من الدمـاء؟ لست أدرى. كـانت شـجـرة الدلب المليـئـة بحفيف الطيور تقوم غير بعيد من هنا. كنا معشر أطفال القرية، نحب أن نأتى لنلعب تحت ظلها. لقد اختفت هى أيضًا!

- أورور!

كان حلقى جافًا، وكنت قد فقدت صوابى تمامًا، ولم يعد عقلى سوى فتحة كبيرة سوداء، فكرة واحدة ملحة كانت تطفو فى غمرة ذهولى: أين «أورور» وأين والدى المريض؟

- أورور!

وفجأة، إذا بها تنتصب أمامنا شعثاء، شاردة فخلتها إنسانة غريبة عنا، وإذا بها تضمنا بين ذراعيها، وتقبل منا الخد والجبين، وتضمنا إلى صدرها بشدة كما لو كانت ترانا لأول وآخر مرة، كان وجهها حزينًا وكانت تتحدث بعجلة.

- سيرا فى الطريق حتى البئر، وانتظرانى هناك:

فتعلقت بثوبها، وقلت لها:

- أورور، لقد قتلوا أمنا.

ففغرت فاهًا على سعته، وسقطت يداها إلى جنبيها، ومكثت على تلك الحال بضع لحظات ثم اندفعت من جديد وسط اللهب.

وسرنا فى الطريق التى كانت تؤدى إلى البئر. كان الناظر يظن أن الليل قد تمزق قطعًا صغيرة لا حصر لها اتخذت هيئة عفاريت لها ذيول طويلة، وعيون صغيرة شنيعة يتراقص فيها اللهب، وقد رأيتها وهى تقفز وتتلوى وتلعب وجوهها خلفنا وهى سعيدة بتعذيبنا، فجذبت يد «روزى» وانطلقت أجرى. فانطلقت العفاريت فى أعقابنا، وكانت الأرض صلبة، وكانت الحجارة تمزق أقدامنا وكانت رئاتنا على وشك الانفجار، وفجأة فكرت فى والدى. ذات يوم بصق دما، كان يسعل وكنا نحن نعلم أنه يعانى من مرض شديد.

أين هو الآن؟ يا إلهى، وضغطت بشدة على يد أختى، وكنت منهكة القوى من فرط الحزن والقلق، وعندما بلغنا البئر، وحيدتين بائستين، انهارت كل شجاعتى وضممت «روزى» إلى صدرى وقد تعلقت كل منا بالأخرى وبكينا طويلاً.

منذ متى ونحن نسير؟ لاأستطيع أن أعرف بالضبط. إن الصغيرة «روزى» تواصل البكاء والنشيج، لقد عبرنا النهر، الوقت نهار، وها هو بابا و«أورور» معنا، ولكن الدموع لا تزال تسيل فوق خديها.

لماذا تبكى؟ حقًا.. لقد تركنا أمنا وراءنا.

إننا الآن نسير على طول طريق لا ينتهى، صلب بفعل الجليد، ووراءنا تقوم الجبال التى تحمى قريتنا، ولكننا لم نعد نستطيع أن نلتفت لننظر إليها، إنها بالتأكيد حزينة إذ ترانا نرحل، إن الرياح التى تكنس قمم الجبال لابد أنها همست لها بسر الفظائع التى وقعت فى الليل، ولعلها تخشى ألا ترانا بعد ذلك أبدًا.

كنت أحب جبالنا، فقد كانت تسهر فى حراسة القرية فى يقظة مهيبة، كانت بالنسبة لنا معشر البنات. سقف العالم، كنا نعيش، وكنا ننام تحت حمايتها، كانت بعض الطيور الجارحة قد اختارت لنفسها، مأوى بالقرب من قمم الجبال، ففى فصل الشتاء كنا نراها تحلق فوق الأودية الصغيرة الجرداء وهى تطلق أصواتا كئيبة، وعندئذ كنا ندرك أن الرياح ستهب على الوادى، فكنا نشرع فى

العودة إلى منازلنا الفقيرة ونغلق الأبواب والنوافذ حتى نمنع الأشباح من التسلل إليها.

كل شىء كان يتغير مع عودة الربيع، كانت وجنتا «روزى» الصغيرتان تصبحان مستديرتين وحمراوين، وكانت موجات من النور الأخضر تهبط من الجبال، وكانت البلابل تعود، وكانت شجرة الدلب تكتسى بأوراق صغيرة لا حصر لها تلعب فى رقة مع النسيم، وكنا نذهب لنتنزه فى الريف، مع بابا وماماو «أورور». وكانت الأرض تعود فاترة خصبة من جديد، وكانت الغصون الصغيرة الخضراء الندية تتخلل الفروع الذابلة القاتمة، بقايا شتاء آخر، وكانت «روزى» تضحك من السعادة وكان والدنا وهو فى وضع الاسترخاء يداعب شعرها.

ثم يقبل الأصيل، الذى يهبط رويدًا رويدًا فوق الجبال، ثم فوق عيوننا وفوق أشجار القرية، وكان والدنا يعطى إشارة العودة، فنعود ونحن نغنى بينما تميل الشمس إلى الغروب.

نعم، كان يتغير كل شىء مع عودة ربيع جديد تمامًا، يحمل وعدًا بالصيف، الربيع والصيف، كانت حياتنا، حياة الأطفال، تتمثل كلها فى هذين

الفصلين، وكانت جبالنا العزيزة تمثل رمزها، فما أشد حزننا إذ نتركها إلى الأبد، دون أن نستطيع حتى أن نلتفت إلى قممها، لنلقى عليها نظرة وداع أخيرة.

وقالت «أورور»:

أنا متعبة، ثم جلست.

فحذونا حذوها، لم يكن أحد يتكلم، وكنا لا نكاد نجرؤ على تبادل النظرات. ولقد تمنيت لو سألت عن الهدف وراء هذا السير المضنى، غير أن الخوف كان يمنعنى، كانت أختى الكبرى تضغط على أسنانها، وكان شعرها الأشعث يداعب جبينها الأملس فى رقة وعذوبة، كان عمرها لا يربو على الخامسة عشرة، وكان الألم يضفى على وجهها تعبيرًا بالحزن، إنها لم تعرف فى حياتها فرحة أخرى سوى فرحة الحياة بيننا، «روزى» وأنا ووالدينا اللذين كانا يحبانا لدرجة العبادة، كانت الحقول والمنزل تشكل كل عالمها، كانت كل فكرة من أفكارها تدور حول أبويها أو شقيقتيها، وكانت نظرتها، وهى فى لون زرقة البحر، تحط علينا، رقيقة هادئة، وذات يوم أخذ والدنا يحدثنا عن البحر،

وكان ذلك فى إحدى أمسيات الشتاء، وكانت نار هائلة تضطرم فى المدفأة، وكانت أمى تحمل «روزى» بين ذراعيها والطفلة تنصت بافتتان إلى قصة البحر اللانهائى، حدث ذلك أيام كان والدنا يذهب من مدينة إلى مدينة باحثًا عن عمل، كان يتحدث بصوت خفيض وكان يعمل من وقت لآخر، وكانت «أورور» تنصت فى سكون وأنا أتأمل عينيها، إننى لم أر البحر فى حياتى، ولكنه بدا لى فى تلك اللحظة أن عينيها كانت انعكاسًا له، انعكاسًا لبحر بعيد مجهول، حافل بالأسرار وبسحر غريب.

والآن، فإن هاتين العينين تهيمان بعيدًا.. فيما وراء الحقول التى أصبحت صلبة بفعل الصقيع كنت أتمنى أن أعرف.. أن أعرف لماذا عشنا تلك الليلة الرهيبة، لماذا أقبل الرجال ليحرقوا القرية ويقتلوا أمنا، إننى على ثقة من أننا لم نمس أحدًا بسوء، كنت أنا و«روزى» نكتفى باللعب تحت شجرة الدلب، مع الطيور، كنا نحب الإله الخالق وجبالنا، من أين أتى هؤلاء الرجال الذين هاجموا منازلنا وهم ينشرون الرعب ويريقون الدماء؟

كانت السماء المنخفضة تثقل على صدورنا، وعاد والدنا إلى السعال وكان ينتفض من البرد، وكانت «روزى» الصغيرة تغمض عينيها.

ورحت أسأل أختى الكبرى:

هل سنظل نسير طويلاً؟

فلم تجب، واستمرت عيناها الزرقاوان تهيم بعيدًا، بعيدًا لدرجة أن نظرتى تاهت وهى تتبعها، كنت أشعر بالبرد، فالتفتت نحوى، وراحت تزرر معطفى. ثم أخذت بين ذراعيها «روزى» التى كانت تغط فى النوم، وكان شعرها الذهبى يسقط فوق وجهها المتجمد، وسمعت أبى وهو يطلق الزفرات... منذ متى دخلنا غابة الصنوبر؟ كنت عاجزة عن معرفة ذلك، كنت قد فقدت الإحساس بالزمن. وكنا نسير فى سكون، ونحن نصغى السمع لطقطقة الأغصان الجافة تحت أقدامنا. آه، لو كنا فقط نستطيع أن ننسى!

كانت أشجار الصنوبر ترتفع حتى إنها كانت تحجب السماء عنا، وحتى إن المطر كان قد شرع فى الهطول دون أن يلحظ أحدنا ذلك، وتوقفت

«أورور» على حين فجأة وولت وجهها ناحية السماء فنظرنا إليها باندهاش.

وسأل أبى قائلاً بصوت خفيض: هل تمطر السماء؟

وإذا بأشجار الصنوبر تجيب فى حزن:

ـ أجل، إنها تمطر.

كان المطر رذاذا دقيقًا، وكان يسقط فى بطء ودون أن يحدث أى ضوضاء. فقد كان يسيل على الأوراق فيشبع الهواء والأرض، وكان ثمة سكون عميق يلف الغابة، فلم نكن نسمع سوى حفيف المطر الذى لا يكل من السقوط على أوراق الأشجار، كنا نتابع مسيرتنا اللانهائية بين سيقان الأشجار السوداء التى جمدت فى ثبوتها وسكونها.

كنت أقول لنفسى إن الليل لن يلبث أن يهبط على الغابة حتى دون أن ندرك ذلك وقد نظل سائرين، سائرين، بلا هدف، حتى نهاية الأحقاب، دون أن نرى منزلنا مرة أخرى، وقد تظل الليالى تتتابع فى أثر الليالى، وقد لا يشرق فجر بالنسبة لنا، مرة أخرى، وقد يظل المطريتساقط إلى الأبد فوق عالم

من السكون والموت، ولن يلتفت إلينا إنسان، ولن يشفق أحد على هذه المخلوقات الملقاة وسط البرد والنسيان، فقط أمنا الحبيبة قد تأتى لزيارتنا فى أحلامنا وهى تداعب شعورنا التى يبللها المطر، وستنقض الظلمات علينا من جديد ونحن وسط الأشباح وألسنة اللهب التى تكون بلون الدماء وستأتى الطيور الجارحة، وهى تضرب بأجنحتها وتطلق صيحات الرعب، فتنزع عيوننا وتخترق أجسادنا بمناقيرها ومخالبها.

وفجأة، صحت قائلة: أبى!

وتوقف المطر فجأة، وكانت الغابة تتطلع إلينا فى برود، فقد كان يبدو أن الطبيعة المعادية، تنبذنا هى الأخرى، وانخلع قلبى من صدرى، فأسرع والدى نحوى، فأخفيت وجهى بين يديه.

وتمتمت قائلة: إنى خائفة!

فضمنى إلى صدره بشدة، ثم رفع وجهى نحوه، وهو يتطلع فى عينى، يحاول أن يبتسم. وبينما نحن نستأنف الرحيل، إذا بالمطر يأخذ فى السقوط.

كان أبى يمسك بيدى، ولم أعد أشعر بالخوف، وكانت «أورور» و«روزى»، تسيران وراءنا. كانت

المياه تسقط من الأغصان نقطة نقطة، فتخترق ملابسنا وتبرد قلوبنا. وفجأة إذا بصوت «روزى» يقطع صمت الغابة فى قوة خارقة.

ـ أنا جائعة!

فالتفتت ناحيتها، فكررت فى عناد.

ـ أنا جائعة!

كانت «أورور» تتأملها فى يأس، وكانت عينا شقيقتى الكبرى قد فقدتا بريقهما، كأن غلالة من التراب قد حطت عليها.

وقال أبى:

ـ هيا، فلنواصل السير قليلاً، أرجوك يا حبيبتى...

وسألته «أورور» بصوت مبحوح بفعل الدموع:

ـ أوه ـ يا والدى ـ كم من الوقت نسير؟

لقد راودتنى هذه الفكرة: أجل، كم من الوقت؟ هذه الغابة، ألن ننتهى أبدًا؟ وهذه الأمطار، ألن تكف أبدًا؟ أنا أيضًا كنت جائعة، لقد أدركت ذلك حينئذاك، لأن معدتى بالتأكيد مليئة بالديدان التى تلتهمنى، وتحفر حفرة ضخمة، حفرة عميقة، مظلمة

مثل الموت، حفرة كانت تصيبنى بالدوار وتهدد بابتلاعى.

وقلت بدورى: أنا جائعة.

فصاح أبى بما بقى لديه من قوة: أنتما جائعتان؟ وأنا، هل تظنان أنى لست جائعًا؟ هل تظنان أنى لست مرهقًا مثلكما، لقد فاض بى، يجب أن نواصل السير قليلاً، فقد نصل.

وإذا بنوبة السعال تمنعه من مواصلة الكلام. كان وجهه فى غاية الشحوب من العذاب.

لقد كان المطر يشتد شيئًا فشيئًا، ونظرت إلى «روزى» كان شعرها يتدلى فى خصلات طويلة هامدة، وكانت تهمهم وتتمتم بصوت خافت: «أنا جائعة، جائعة» لقد تظاهرت بعدم سماع الرجاء الذى وجهه أبى يحثنا به على مواصلة طريقنا.

كانت «أورور» تبدو منهكة تمامًا، وقد تقلص فكاها، والتصقت ملابسها بجسدها، وراحت تقطر ماء، وكان صدرها الضئيل يرتفع ويهبط بسرعة، وتبادلت مع والدنا نظرة ضعيفة، فطأطأ لها رأسه، ثم قال بصوت خفيض: يجب أن نسير، إننا لا نملك الاختيار.



وحملت الأمطار كلامه الذى راح يتبدد وسط الغابة فى حزن وأسى، وتطلعت حولى، كان الغروب يهبط، أشبه بسائل كثيف أسود يملأ وحده الأرض رويدًا رويدًا، وكانت الأشجار تكبر للعين المجردة، وكانت قممها تختفى فى السماء، وكانت جميع الطيور قد هجرت هذه الأماكن الملعونة، فلم نكن نرى سوى قطرات المطر وهى تلمع بطريقة غريبة أشبه بعيون صغيرة يقظى تسخر منا ومن آلامنا.

كنت أشعر بالخوف، فاحتضنت يد والدى وعاودت السير بخطى حثيثة.. وكان يتبعنى وهو يسعل ويزفر، وكانت «روزى» و«أورور» تسيران خلفنا، وكانت ضوضاء خطواتهما تضاعف من فزعى فأسرعت الخطى.

وكانت الأغصان تطقطق وكنت أسمع الأنين المؤثر الذى يصدر عن المياه الساقطة، وأخذت أجرى واندفع الآخرون فى أعقابى. كانوا يسرعون كالمجانين، ولم أكن أرى شيئًا على مسافة ثلاثة أمتار أمامى، وكان قلبى ينبض بجنون وكنت أسمع الأشجار وهى تضحك ساخرة على طريقنا وثمة عواء كئيب يخترق الغابة.

ولم نعد سوى أجساد بلا أرواح تسرع إلى الهاوية، الغابة بأسرها كانت تطاردها.

فسقطت على الأرض جاذبة أبى الذى انهار فى أعقابى، وعاودت الرحيل وأنا أعدو، ولكن جذع شجرة هائلًا كان يسد الطريق فاعترض سبيلنا، فسقطت من جديد وفى هذه المرة عجزت عن النهوض. كانت ركبتاى تؤلماننى ألمًا شديدًا وكنت أشعر بألم فظيع فى معدتى: كنت أتنفس بصعوبة، وكان قلبى ينبض كعصفور وقع فى الشبك، فأغمضت عينى، وإذا بألف صوت يهمس فى أذنى، وسرعان ما فقدت الشعور، وعندما فتحت عينى من جديد، كانت شمس شاحبة تلمع فى السماء.

وكانت «أورور» بجوارى وكان أبى قريبًا منا ينام بجوار «روزى».

فسألت وأنا أتطلع حولى فى ذعر:

- أين نحن؟

ولم تجب على الفور، كانت تتأمل السهل الفسيح الذى كان أمامنا، ثم وضعت يدها فوق جبهتى، وقالت:

بماذا تشعرين؟

- «أورور» إننى لم أعد أرى الغابة...

فتمتمت قائلة:

- اطمئنى، لقد تركناها وراءنا.

- ولكن كيف وصلنا إلى هنا؟

- لقد حملتك فوق ظهرى، وحمل والدنا روزى، وكنت طوال الليل تنتفضين من الحمى، كنت تنادين ماما، أخبرينى هل تشعرين الآن بتحسن؟

وجلست أنا وضممتها إلى صدرى بكل قواى، وتمنيت لو احتفظت بها إلى الأبد بين ذراعى، كنت أخشى أن أفقدها، أوه! أجل، كنت أشعر بتحسن، مادام قلبها يدق بالقرب من قلبى، وما دامت عيناها تتأملاننى بحنان. كانت معدتى خاوية، وكان رأسى يملؤه الطنين، ولم أشأ أن أخبرها بذلك نظير أى شىء فى العالم.

وجعلت أنظر إلى الصغيرة «روزى». كانت لا تزال نائمة ونظرت إلى الشمس الشاحبة التى كانت تتأملنا من عليائها فى ذهول، كانت حالتى طيبة ولم أكن أتمنى شيئًا آخر، كنت أتمنى فقط أن أظل على تلك الحال إلى الأبد، بين ذراعى «أورور» أقبل يدها من وقت لآخر وأكون فى حمى نظرتها الحانية.

وسألتنى أختى الكبرى:

- هل أنت جائعة؟

قلت - لا.

كنت أبتسم للشمس فى حبور وسرعان ما استيقظت «روزى» فتركتنى «أورور» لتسرع إليها وقالت لها:

- هل نمت نومًا طيبًا، يا حبيبتى؟

ولم تجب الطفلة، كانت - تنقل حولها نظرة مليئة بالفضول، وتأملتنى بإمعان كما لو كانت ترانى لأول مرة، فابتسمت لها وصحت بها، أن تأتى لتجلس بجوارى، كنت أريد أن أخبرها بأنه لم يعد لدينا أى سبب للخوف، ولكن الوقت لم يسعفنى إذ سرعان ما صرخت: «أورور» قائلة:

- دم! دم!

فارتعدت أوصالى.

وكررت هى قائلة: دم! أوه! أبى...

وتحطم صوتها كما يتحطم كوب من الزجاج. وتوارت «روزى» وهى مذعورة وراء أختها وعندئذ رأيت شريطًا من الدماء يسيل فى بقع كبيرة من فم والدى النائم ليسقط فوق الأرض المتجمدة كنا نعرف منذ مدة طويلة أنه مريض، ولكننا كنا نجهل

أن مـرضــه كـان بهـذه الخطورة، وإذا بألم فظيع يخترق قلبى، وسرعان ما اختفت الشمس خلف سحابة من السحب، وعاد كل شىء رماديًا يائسًا فانضممت إلى «أورور» واحتضنت كل منا أختها ونحن نتأمل والدنا، الذى لم توقظه من نومه صرخة أختى، كان هادئًا. ولم يكن وجهه يعبر عن أى ألم وكان يلوح عليه أنه نسى المتاعب التى اجتزناها: موت أمى، والقرية المشتعلة، الليل وسط الغابة، كان ينام فوق العشب، وكانت الدماء التى تتدفق على ركنى شفتيه تكون بركة صغيرة تكبر شيئًا فشيئًا.

وقالت «أورور» وهى تربت يده اليمنى: أبى!

كنا نرتعد.

وصاحت «روزى» بغتة: أبى!

وتمزقت طبقة السحاب، ولاحت الشمس فى السماء، وسقط شعاع فمس جفنى والدنا الذى فتح عينيه ورآنا مائلات عليه، كنا نتنفس فى حذر، خشية أن نزعج تلك النظرة الهادئة، وكنا نقرأ فى عينيه أنينًا ورقة فائقة، وطيبة تمزق قلوبنا.

واختفت الشمس، واستولى السحاب من جديد على السماء، وأغمض الجفنان مرة أخرى وبسطنا إليه أيدينا.

وإذا بالجفنين ينتفضان، وحاول أن ينتصب واقفًا، وإذا بموجة من الدماء تتدفق من فمه، وأراد أن يوقفها، فرفع يده إلى شفتيه، ولكن الأوان كان قد فات، فتدفقت الدماء مغرقة ثيابه وثيابنا، وكان وجهه شاحبًا للغاية، وثمة تجاعيد عميقة تحفر جبينه وأخرج من جيبه منديلًا قذرًا وجفف شفتيه. وكانت السحب، وهى لا تكترث لنا، لا تزال معلقة فوق رؤوسنا وكنا ننظر إليه وقد تحجرنا من الألم.

وتمتم وهو يبتسم بمرارة: لقد فات الأوان.

وحطت نظرته على كل واحدة منا ثم توقفت على «روزى».

وبسط ذراعيه، وداعب الشعر الأشقر الجميل.

وقال، بينما دمعتان كبيرتان تسيلان فوق خديه: حبيبتى، ثم أضاف بصوت خفيض وكأنه يشعر بالخجل:

- إننى لا أستطيع أن أذهب أبعد من ذلك.

كانت الدموع تسيل فوق خدى.

وشعرت بغصة فى حلقى واعتقدت أننى أختنق، ولبثت صامتة وأغمضت عينى، ولكننى على حين فجأة سمعت صوتًا مكتومًا جعلنى أقفز من الرعب،

كان والدى راقداً على ظهره وكانت الدموع لا تزال تترقرق فى عينيه المفتوحتين على سعتهما.

فأطلقت صرخة:

- «أورور»!

وسمعت ما يشبه الصدى:

- أبى!

ومر طائر فوق رءوسنا وهو ينعق، ومست شعورنا رياح خفيفة، واختلطت أصواتنا بصياح الطائر وهبوب الرياح.

وناديت مرة أخرى:

- أبى!

وأخذت يده، وهززتها، وحركت رأسه يميناً ويساراً، ولكنه لم يعد يتكلم، كان من العسير التعرف على «أورور». لقد تخلت عنها كل قوتها وضاقت عيناها الزرقاوان، وكانت شفتها العليا ترتعد.

فدفعتنا فى قسوة، وأطبقت الجفنين على العينين الميتتين، ثم ألقت بنفسها فوق جثة والدنا المحبوب وضمته بين ذراعيها فى يأس، وأخذت تولول وهى تطلق صراخاً مبحوحاً يؤذى سماعه الآذان.

إن الكلمات لا يمكن أن تصور آلامنا، وكانت الدموع أعجز من أن تخففها. لقد ظلت فى داخلنا، هائلة، بلا حدود وغدت عمودًا راح يصعد حتى السماء ويسقط فوق قلوبنا.

وضغطت على يد «روزى» قائلة: ماذا سيكون مصيرنا الآن؟

وقالت أورور وهى تتوجع.

- ماذا سيكون مصيرنا؟

ورأيتها تنهض، وكانت عيناها أشبه بطائرين مسكينين جريحين وكررت فى يأس قائلة:

- ماذا سيكون مصيرنا الآن؟

وا أسفاه! هل كنا نعلم ذلك؟ كانت الشمس قد غابت...

ونعق أحد الغربان ثم اختفى، وظهر فى السماء خط من النور، بعيدًا.

وأعقب ذلك رعد هائل، كما لو كانت الجبال تتفكك، وكما لو كانت نهاية العالم وشيكة الوقوع، كانت «أورور» تعض على شفتيها وألقت حولها نظرة أشبه بنظرة بهيمة يطاردها الصياد، وتقدمت

خطوتين إلى الأمــام وتوقــفت وتفــرســتنا بضـع لحظات، ثم استـأنفت سيرها، وسرعان ما غابت عن أنظارنا ونشــر البـرق نورًا صـاعـقًا فـأطلقت، «روزى» صرخة فزع.

● أورور - و - و - ر!

وسـمعناها وهى تنادينا، وكانت السـحب تحـوم على ارتفاع منخفض فوق رؤوسنا أشبـه بكفن على أهبة أن يلفنا فى طياته.

● هو - هو - هو!

وضعف الصوت وتحطم فى حزن وأسى، وظننت أنى أسـمع نحـيـبًا، ولم نكن نقـوى، «روزى» وأنا، حـتى على الرد على هذا النداء، وعندمـا عـادت شقيقتنا، لقيتنا فى نفس الوضع الذى تركتنا عليه:

الرأس مـحنى على الصـدر، ثم عاودنا البكاء من جديد.

وتتابع البرق، وكانت زمجرة الرعد تقترب، وشرع المطر يسقط بعيدًا، وانتصبت «أورور» واقفة، وقد دكنت زرقة عينيها بفعل العاصفة. كان المطر على وشك النزول فلمحت دغلاً من الشجيرات، غير بعيد

عنا، وشرعت تقطع منه الأغصان لكى توارى جثة والدنا، وحذونا نحن حذوها، وإذا بالمطر فى نهاية الأمر يبلغ مأوانا، كان البرق يمزق السماء، وكان يلوح أن كل زمجرة من الرعد تخلع قلوبنا، وراحت الطرق المجهولة التى ستبتلعنا تفتح أبوابها أمامنا، فأمسك بعضنا بأيدى البعض الآخر، وبدأت المسيرة المنعزلة. «روزى» وحدها حولت رأسها الشقراء وتأملت لآخر مرة الجثة التى لم تغطيها الأغصان تمامًا.. ولكنها كانت صغيرة جدًا بحيث لم تدرك أنها آخر مرة..

إننا لا نزال نسير ولا أحد يتكلم. إننا لا ندرى إلى أين نحن ذاهبون، والأمر بالنسبة لنا سيان. لقد جفت الدموع فى عيوننا، وثيابنا مليئة بالبقع الداكنة، بقع الدماء، أتراها دماء أمنا، أم دماء قلوبنا؟ لاندرى .

* * *

الفهــرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٨٤٨٩ / ٢٠٠٠

I.S.B.N 977 - 01 - 7206 - 7